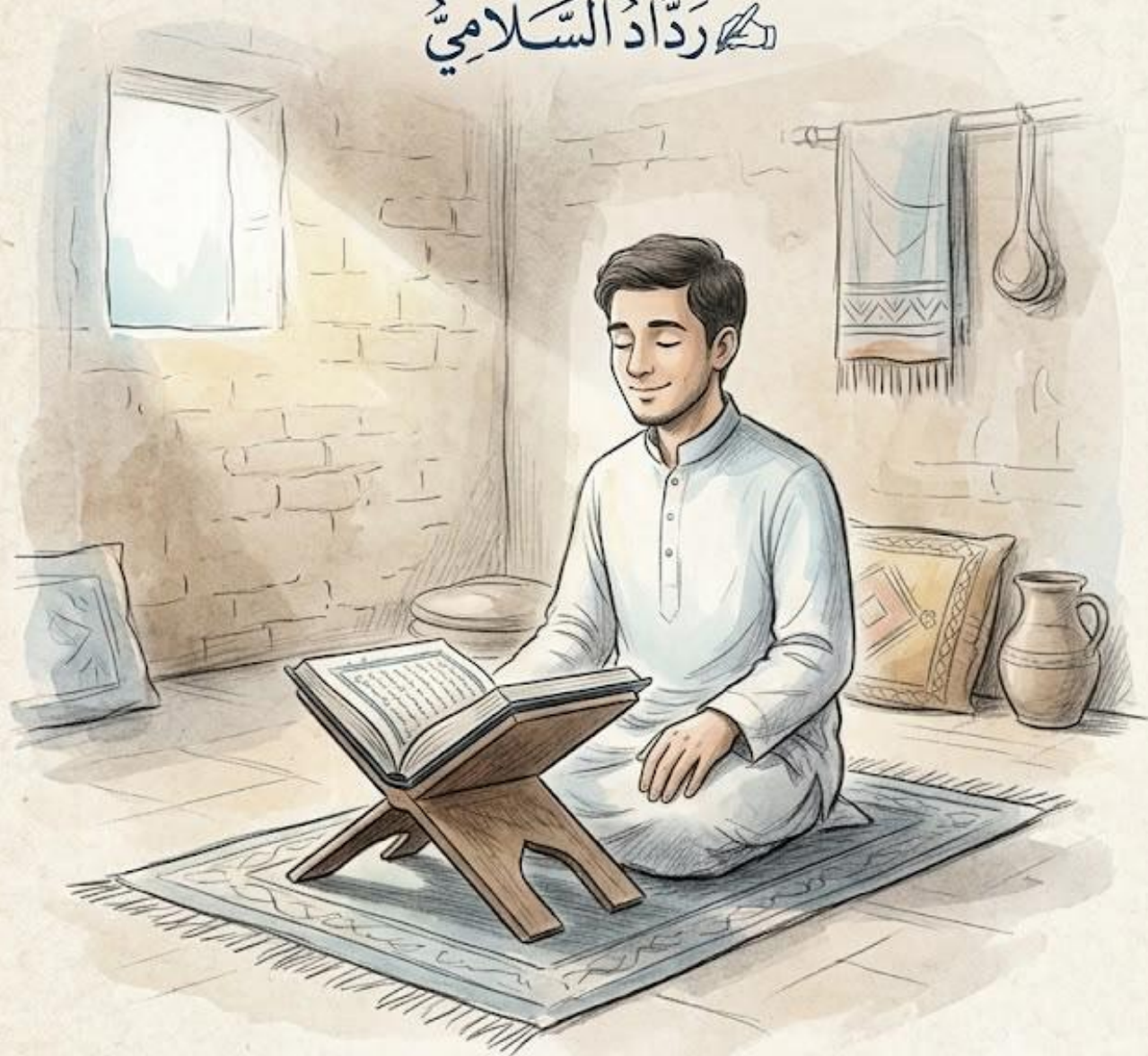


مَا لَمْ يَخْشَرْهُ

رَوَايَةٌ فِي الْيَقِينِ حِينَ تُسَاوِمُ الدُّنْيَا الْإِنْسَانَ عَلَى نَفْسِهِ

رَدَّادُ السَّلَامِيِّ



مَا لَمْ يَخْسَرْهُ

رواية في اليقين حين تُساوم الدنيا الإنسان على نفسه

رداد السلامي

هذه الرواية

ليست هذه الرواية حكاية رجلٍ لم يخسر، بل حكاية رجلٍ خسر أشياء كثيرة، ورفض أن تكون نفسه واحدةً منها. إنها رحلة في المناطق الخفية من الضمير، حيث لا تأتي الفتنة دائمًا في صورة مال أو منصب، بل قد تأتي في هيئة دواء للأم مريضة، أو نجاة لصديق، أو رحمة تبدو أحيانًا أقرب إلى الخيانة.

في «ما لم يخسره» يقف يحيى السالمي بين دنيا تعرض عليه أبوابها مقابل توقيعه، وآخره تسكن يقينه وإن غابت عن عيون الآخرين. يبدو في موازين الناس خاسرًا، بينما يخوض في أعماقه معركةً أشد خطرًا: ألا يتحول ثباته إلى كبر، ولا عدله إلى انتقام، ولا ألمه إلى ظلم جديد.

إنها رواية عن الإنسان حين يُمتحن في أحب الأشياء إليه؛ عن الخوف الذي يصنع المتواطئين، والتوبة التي تأتي مثقلةً بآثار الطريق، والحق الذي قد يتأخر لكنه لا يفقد اسمه. وفي قلبها يظل السؤال قائمًا: ماذا يبقى للإنسان إذا ربح الدنيا كلها، ثم وصل إلى نهايتها فاكتشف أنه ترك نفسه في أول الطريق؟

الفصل الأول

الباب الذي فُتح من الجهة الخطأ

في ذلك الصباح، خرج يحيى السالمي من بيته وهو لا يعلم أن الحياة قد أعدت له امتحاناً يرتدي ثياب الفرصة.

كانت المدينة تستيقظ متثاقلة تحت سماء شاحبة. الدكاكين ترفع أبوابها الحديدية بصخب، والحافلات الصغيرة تجمع الناس من أطراف الطرق كما تجمع الريح أوراقاً يابسة، والباعة يرشّون الماء أمام متاجرهم، كأنهم يغسلون وجه النهار قبل أن يبدأ ازدحامه الطويل.

وقف يحيى لحظة عند عتبة البيت، ثم التفت إلى النافذة التي كانت أمّه تطلّ منها كلما خرج. لم يرَ وجهها هذه المرة، لكنه سمع سعالها الخافت من الداخل، فبقي واقفاً لحظات، وقد انقبض قلبه بذلك العجز الصامت الذي يشعر به الابن حين يمرض أبواه ويكون جيبه أضيق من حاجتهما.

عاد خطوتين، وفتح الباب.

قال من وراء الستار:

— أمّي، هل تناولتِ الدواء؟

جاء صوتها هادئاً، وقد خفّفته السنون كما يخفّف المطر حدّة الصخور:

— تناولته يا بُنيّ، اذهب إلى عمك ولا تحملني معك طوال النهار.

ابتسم رغم أنه لم يرها.

— وكيف أتركك هنا؟

قالت:

— اتركني عند الذي لم يتركنا يومًا.

كانت أمّه تقول الجمل الكبيرة كما لو أنها تتحدّث عن شيء عادي؛ فلا ترفع صوتها، ولا تتألق في اختيار ألفاظها، لكنها تضع يدها على موضع الوجد دون أن تجرحه. أغلق يحيى الباب ومضى، وبقيت عبارتها تسير إلى جواره: *اتركني عند الذي لم يتركنا يومًا.*

كان يعمل محاسبًا في مؤسسة مقاولات كبرى، تحتل الطابقين الأخيرين من مبنى زجاجي يطل على نصف المدينة، ولا يرى النصف الآخر. وكان يحيى يظن أحيانًا أن المباني الشاهقة تشبه أصحاب النفوذ: تتيح لهم رؤية الناس، لكنها تحجب عنهم رؤية الأزقة التي جاءت منها الأهم.

دخل المؤسسة في الثامنة إلا دقائق. ألقى التحية على الحارس العجوز، ثم عبر الرواق الطويل. كانت الجدران مكسوة بصور مشاريع ضخمة: جسور تمتد فوق الوديان، أبراج لامعة، طرق عريضة، ومستشفيات لم تكتمل. وفي كل صورة لوحة صغيرة تحمل اسم المؤسسة، كأن الإسمنت نفسه قد تعلّم كيف يمدح أصحابه.

ما إن جلس خلف مكتبه حتى لمح ظرفًا بنيًا فوق الملفات. لم يكن عليه اسم مرسل، ولم يحمل ختم الإدارة. فتحه فوجد نسخة من عقد توريد، وجدولًا طويلاً من الأرقام، وتحت الجدول ورقة صغيرة كُتب فيها:

راجع الفروق وحدك، ولا تُطلع أحدًا.

عرف الخط. كان خط المدير المالي، منصور الراوي.

رفع يحيى عينيه إلى الباب المغلق، ثم أعاد النظر إلى الأرقام. لم يحتج إلى أكثر من دقائق ليرى ما حاولت كثرتها أن تخفيه. كانت أسعار المواد مضاعفة، وأسماء الموردين تتكرر في صيغ مختلفة، ومبالغ ضخمة نُقلت إلى شركات لا وجود لها إلا على الورق.

ظل ساكنًا، فيما راحت أصوات الآلات الحاسبة ولوحات المفاتيح تتناثر حوله كالطر على سقف من صفيح.

لم تكن هذه أول مرة يرى فيها فسادًا. لقد عرف منذ دخل المؤسسة أن بعض الأبواب لا تُفتح بالمفاتيح، بل بالتنازلات؛ وأن المال حين يكثر حول الإنسان لا يسأله أولًا عن حاجته، بل يبحث عن الثغرة التي يدخل منها إلى ضميره. غير أن ما أمامه اليوم لم يكن شبهة يمكن تأويلها، ولا خطأ يمكن تداركه. كان بناءً كاملاً من الكذب، وكل رقم فيه حجر.

عند التاسعة، رنَّ الهاتف الداخلي.

— الأستاذ منصور يريدك في مكتبه.

حمل يحيى الظرف وصعد.

كان مكتب المدير أوسع من بيت يحيى كله. خلف الواجهة الزجاجية تمددت المدينة صغيرة ووديعة، بلا فقراء ولا مرضى ولا أطفال يبحثون في حاويات القمامة؛ فالمسافة، حين تطول، تُحسن إخفاء المآسي.

جلس منصور الراوي خلف طاولة سوداء عريضة. كان رجلاً في أواخر الخمسين، حسن الهندام، بطيء الحركة، يتكلم بهدوء من اعتاد أن تُنفذ كلماته قبل أن يكملها. أشار إلى المقعد المقابل دون أن يرفع رأسه عن الورقة التي يوقعها.

جلس يحيى ووضع الظرف أمامه.

قال منصور:

— راجعت الملف؟

— نعم.

— ووجدت الفروق؟

— وجدتها.

رفع منصور عينيه إليه. كانت نظراته خالية من المفاجأة، كأن السؤال لم يكن عن الأرقام، بل عن الرجل الذي قرأها.

— ممتاز. نحتاج إلى إعادة ترتيب بعض البنود قبل المراجعة السنوية.

قال يحيى بهدوء:

— البنود ليست مضطربة حتى نرتبها. الأرقام مزورة.

تراجع منصور في مقعده، وشبك أصابعه فوق بطنه.

— الكلمات القاسية لا تصلح دائماً في الأعمال الكبيرة.

— لكنها تصلح للأشياء الواضحة.

ابتسم المدير ابتسامة صغيرة لم تبلغ عينيه.

— أحب صراحتك يا يحيى. ولهذا اخترتك من بين الجميع.

شعر يحيى أن العبارة ليست مديحاً، وإنما شبكة أُلقيت بلطف.

فتح منصور درج مكتبه، وأخرج ملفاً أزرق، ثم دفعه نحوه.

— هذا قرار تعيينك مديراً للحسابات. راتبك سيتضاعف ثلاث مرات،

وسيُصرف لك بدل سكن وسيارة. أعرف ظروف والدتك، وأعرف أنك

تقدمت بطلب مساعدة لعلاجها خارج البلاد.

بقيت يد يحيى على ركبته، لكن قلبه امتدّ نحو الملف.

رأى في لحظة واحدة وجه أمّه المنهك، وعلب الدواء المتناثرة قرب سريرها،

وسقف البيت الذي يرشح كل شتاء، ورسائل صاحب المنزل، وحذاء أخته

المدرسي وقد خاطته مرتين كي لا يفتضح فقرها أمام زميلاتهما.

بعض المغريات لا تأتيك من جهة الشهوة، بل من جهة الرحمة. ولهذا تكون أشد فتكًا؛ لأنها لا تقول لك: بع ضميرك لتترف، بل تهمس: تنازل قليلًا لتنقذ من تحب.

فتح يحيى الملف. رأى اسمه مطبوعًا تحت عبارة: مدير الإدارة المالية. كان للاسم في ذلك الموضع بريق لم يعرفه فوق أوراق الإيجار وفواتير الصيدلية. قال منصور وهو يراقب عينيه:

— لا أطلب منك أن تسرق، ولا أن تأخذ مالا ليس لك. كل ما نريده إجراء إداري بسيط. توقع هنا، وتصبح مسؤولًا عن تسوية الحسابات وفق التعليمات. — وهل التعليمات تجعل الباطل صحيحًا؟

انطفأت الابتسامة قليلًا.

— الباطل كلمة يستخدمها الذين ينظرون إلى الحياة من خارجها. حين تدخل إلى قلب السوق ستعرف أن الأشياء ليست بيضاء أو سوداء كما تظن. — لكن المال المسروق يظل مسروقًا، مهما كانت ألوان المكاتب.

سكت منصور. ثم نهض ومشى إلى الواجهة الزجاجية. وضع يديه خلف ظهره، ونظر إلى الشوارع البعيدة.

— كنت مثلك يومًا ما.

قالها بنبرة أثارت في يحيى حزنًا مبالغًا؛ فلم يعرف أكان الرجل يتذكر براءة قديمة أم يسخر منها.

تابع منصور:

— كنت أظن أن الإنسان يستطيع العيش بالمبادئ وحدها. ثم اكتشفت أن للمريض فاتورة، وللبيت إيجارًا، وللأطفال حاجات لا تدفعها الخطب الجميلة. الحياة يا يحيى لا تهزمنا دفعة واحدة؛ إنها تعلّمت أن نكون واقعيين.

رفع يحيى رأسه إليه وقال:

— أخشى أن ما تسميه واقعية ليس إلا الاسم الذي نمحه لهزيمتنا حين نخجل من الاعتراف بها.

التفت منصور ببطء. كان في وجهه شيء يشبه الغضب، وشيء آخر يشبه الألم.

— فكر في أمك قبل أن تجيب.

وقعت العبارة على قلب يحيى كضربة في موضع مكشوف.

نظر مرة أخرى إلى قرار التعيين، ثم أغلق الملف ودفعه نحو منتصف الطاولة.

— أنا أفكر فيها الآن.

— إذن وقّع.

— أفكر فيما ستراه في وجهي إذا عرفت من أين جاء ثمن علاجها.

قال منصور بحدّة:

— وهل ستتركها تموت من أجل بضعة أرقام؟

ارتجفت أصابع يحيى. لم يكن السؤال عادلاً، لكنه عرف الطريق إلى جرحه. وظل لحظات لا يسمع إلا صوت أمّه في الصباح: *اتركني عند الذي لم يتركنا يوماً.*

قال بصوت خافت، لكنه ثابت:

— الذي كتب عليها المرض لم يجعل الحرام دواءها.

ساد المكتب صمت كثيف. في الأسفل كانت المدينة تركض وراء أرزاقها، وفي الأعلى كان رجلان يقفان على طرفي معنى لا يراه أحد.

عاد منصور إلى مقعده، وأغلق الملف بعنف.

— أنت لا تفهم حجم الفرصة التي تضيعها.

نهض يحيى والتقط الظرف.

— ربما.

— ستندم.

توقف عند الباب، ثم التفت إليه.

— الندم أن أصل متأخراً إلى ما أريد، فأكتشف أنني تركت نفسي في أول الطريق.

خرج، وأغلق الباب خلفه برفق. لم يكن منتصرًا كما تصوّر الروايات الرجال في لحظات الثبات؛ لم يشعر بقوة خارقة، ولم تمتلئ روحه بالطمأنينة دفعة واحدة. كان خائفًا. خائفًا على عمله، وعلى أمّه، وعلى الغد الذي لا يملك له مألًا ولا ضمانًا. فاليقين لا يعني أن تختفي المخاوف، بل أن يبقى الطريق واضحًا حين تمتلئ جوانبه بها.

عاد إلى مكتبه، فوجد زميله سامر ينتظره. كان سامر شابًا لطيف المعشر، سريع البديهة، يؤمن بأن الذكاء هو القدرة على النجاة من المبادئ قبل أن تتحول إلى أعباء.

نظر إليه مبتسمًا:

— هنيئًا يا مدير.

وضع يحيى الظرف في الدرج.

— لم أصبح مديرًا.

اختفت الابتسامة عن وجه سامر.

— رفضت؟

— نعم.

اقترب منه وخفض صوته:

— هل جننت؟ أتدري كم واحدًا هنا مستعد لبيع نصف عمره من أجل هذا المنصب؟

قال يحيى:

— أخشى أن المطلوب لم يكن نصف عمري، بل بقيته كلها.

جلس سامر على طرف المكتب.

— لا تبالغ. توقيع واحد، وينتهي الأمر. لن يتغير العالم لأنك رفضت، ولن تعود الأموال إلى أصحابها. غيرك سيوقع غداً.

— ربما.

— فما الذي كسبته؟

نظر يحيى إلى النافذة. كان عامل النظافة في الساحة يحمل أكياس القمامة، فيما يمر الموظفون جواره دون أن يروه. وقال:

— لا أعرف بعد. لكنني أعرف ما لم أخسره.

ضحك سامر بمرارة.

— هذه العبارات لا تشتري دواءً.

رفع يحيى عينيه إليه. لم يغضب، فقد كان السؤال نفسه ينهشه من الداخل.

— صحيح. لكنها تمنعني من شراء الدواء بثمان لا أستطيع دفعه يوم القيامة.

تنهد سامر، ثم نهض.

— ستعيش وحيداً بهذه الطريقة.

قال يحيى:

— قد يكون أشد الوحدة أن يعيش الإنسان مزدحمًا بكل شيء، إلا بنفسه.

غادر سامر وهو يهز رأسه. أما يحيى ففتح سجل الحسابات، محاولاً أن يستأنف عمله. لكن الأرقام كانت تتراقص أمام عينيه، ووجه أمّه يرتفع بينها مثل سؤال لا جواب له.

وقبيل الظهر، جاءه البريد الداخلي برسالة مقتضبة:

يُرجى تسليم جميع الملفات التي بحوزتك إلى إدارة المراجعة، والتوجّه إلى شؤون الموظفين.

قرأها مرتين. ثم أخرج من جيبه مفتاح الدرج ووضعه فوق الطاولة.

لم يحتج الأمر إلى تفسير.

جمع أشياءه القليلة في صندوق ورقي: مصحفًا صغيرًا، وكوبًا أبيض مشروح الحافة، وصورة قديمة لأبيه، وقلمًا أهدته إليه أمّه يوم تخرجه. مرّ بين المكاتب، فتجنّبت بعض العيون النظر إليه، وتعلّقت به عيون أخرى لحظة ثم هربت. ففي أماكن الخوف يتعلم الناس أن التعاطف تهمة، وأن السلام على المطرود قد يُفهم اعتراضًا على من طرده.

عند باب المؤسسة، استوقفه الحارس العجوز.

نظر إلى الصندوق بين يديه، ثم إلى وجهه.

— انتهى عملك يا أستاذ يحيى؟

قال يحيى:

— يبدو أنه بدأ الآن.

لم يفهم الحارس العبارة، لكنه مدّ يده وربّت على كتفه.

خرج يحيى إلى الشارع. كانت الشمس في كبد السماء، عارية وقاسية، والمدينة أكثر ضجيجًا مما تركها في الصباح. سار بلا وجهة واضحة، يحمل صندوقه بكلتا يديه، كأنه يحمل بقايا حياة انكسرت في ساعات قليلة.

مرّ أمام صيدلية فتوقف. نظر من وراء الزجاج إلى الدواء الذي وصفه الطبيب لأُمّه. كان يعرف سعره، ويعرف أن ما في جيبه لا يكفي إلا لأيام.

للمرة الأولى، شعر أن قراره لم يكن مشهدًا نقيًا من البطولة، بل سكينًا لها حدّان: أحدهما يحفظ ضميره، والآخر يجرح من يحب.

وقف طويلًا أمام الصيدلية. ثم أخرج هاتفه، وكاد يتصل بمنصور.

كان الاسم أمامه على الشاشة، قريبًا كقرب السقوط.

وفي اللحظة التي همّ فيها بالضغط، جاء اتصال من أمّه.

أجاب سريعًا:

— نعم يا أمّي.

قالت بصوت بدا أكثر تعبًا:

— عدت إلى البيت؟

نظر إلى صندوقه، وإلى المارة المتدفقين حوله.

— في الطريق.

سكنت قليلاً ثم قالت:

— لا أدري لماذا انقبض قلبي عليك.

ابتلع غصته.

— أنا بخير.

— يحيى؟

— نعم؟

— لا تأتني بشيء يكسرك.

لم يستطع الإجابة.

قالت، كأنها رأت ما لم يخبرها به:

— نحن يا بُني لا ننجو دائماً مما يؤلمنا، لكننا نستطيع أن ننجو مما يُفسدنا.

والوجع الذي يُيقينا أنقياء أرحم من راحة نخسر فيها وجوهنا.

أغلق يحيى عينيه. وانهمرت دمعة واحدة، لم يمسحها.

اختفى اسم منصور من الشاشة، وبقي صوت أمّه في قلبه.

مشى نحو البيت، لا يحمل راتبًا ولا منصبًا ولا وعدًا بالغد. وفي نظر المدينة، كان رجلًا قد أضاع فرصته الأخيرة. غير أن شيئًا عظيمًا كان يولد في أعماقه؛ شيء لا تصنعه المكاسب السهلة، ولا تمنحه المناصب، ولا يظهر في كشوف الحسابات.

كان يعود إلى بيته خاسرًا كل ما تستطيع الدنيا أن تعدّه، لكنه كان يحمل نفسه كاملة.

ولم يكن يعلم أن الرجل الذي وقّع بدلًا عنه سيطرق بابه بعد ثلاثة أشهر، مذعورًا، حاملًا السرّ الذي سيقرب المؤسسة والمدينة وحياة يحيى جميعًا.

الفصل الثاني

ما يراه القلب في العتمة

وصل يحيى إلى البيت قبيل العصر.

كان الباب الخشبي مواربًا، والسكينة التي تسكن الأزقة في تلك الساعة قد تمددت على المكان كعباءة قديمة. في الساحة الصغيرة جلست أمّه قرب النافذة، تلف كتفيها بشال رمادي، وأمامها إناء من العدس تنقيّه بيدين هزيلتين. كانت تلتقط الحصى من بين الحَبّات كما لو أنها تعرف منذ زمن بعيد أن الحياة لا تقدّم خيراتها خالصة، وأن على المرء أن يفتّش بعين صابرة عما يؤذي أسنانه وقلبه.

رفعت رأسها حين سمعت خطواته.

وقعت عيناها على الصندوق الذي يحمله، فعرفت.

لم تسأله لماذا عاد باكراً، ولم تقل: ماذا فعلت؟ ولم تُظهر الفزع الذي هبّ في صدرها. اكتفت بأن أزاحت الإناء عن الكرسي المجاور وقالت:

— ضعه هنا يا بُنيّ، ستتعب يداك.

وضع يحيى الصندوق، وبقي واقفاً أمامها كطفل أخطأ ويترقب حكم أمّه. غير أنه لم يكن يخشى لومها بقدر ما كان يخشى أن يرى في وجهها ألماً صنعه قراره.

قال:

— فصلوني من العمل.

هزّت رأسها ببطء، كأنها تستقبل خبرًا كانت تنتظره.

— لأنك رفضت؟

جلس قبالتها.

— وكيف عرفت؟

مررت أصابعها بين حبّات العدس وقالت:

— أمّك لا تعرف الحساب، لكنها تعرف وجهك حين تكون بين خوفين.

تنهد يحيى، وأسند ظهره إلى الجدار.

— عرضوا عليّ منصبًا وراتبًا كبيرًا، لكنهم أرادوا أن أوقع على حسابات مزوّرة.

توقفت يدها لحظة، ثم عادت إلى عملها.

— ولم توقع.

— لم أوقع.

قالتها عيناها قبل شفّتها: الحمد لله.

لكن يحيى لم يجد في ذلك عزاءً كاملاً. أخرج علبة الدواء شبه الفارغة من جواره، ورفعها أمامها.

— بقيت لك ثلاثة أقراص فقط.

ابتسمت الأم.

— وثلاثة أيام في خزائن الله ليست قليلة.

— لا أريد عبارات تطمئنني يا أمي. أريد علاجاً لك.

وضعت الإناء جانباً، ونظرت إليه طويلاً.

— وهل كنت تريد أن تُطعمني الدواء وأراك تختنق به؟

— كنت أستطيع أن أوقع دون أن آخذ شيئاً لنفسى.

— وهل يصير الحرام بعيداً عنك لأنك لم تضعه في جيبيك؟ اليد التي تفتح باب الظلم شريكة، وإن وقفت خارجه.

خفض يحيى رأسه. كانت أمّه أشد وضوحاً منه، مع أنها لم تدخل مكتباً قط، ولم تتعامل مع العقود والفواتير. لقد علّمتها الحياة فقه الأشياء قبل أسمائها؛ فعرفت أن بعض الذنوب لا تسكن اليد التي تأخذ وحدها، بل تسكن اليد التي تكتب، والعين التي ترى، واللسان الذي يسكت.

قال بعد صمت:

— أخاف أن أكون قد حمّلتك ثمن مبدئي.

أمالَت رأسها نحوه.

— المبدأ الذي يدفع ثمنه الآخرون ظلم، لكنك لم تختَر مريضِي، ولم تمنع عني مالك. أنت فقط رفضت أن تعالجني بحقوق مريضِي آخرين.

رفع عينيه إليها.

تابعت:

— تلك الأموال التي أرادوك أن تسترها، أليست أموال مشروع المستشفى؟

— بلى.

— إذن ربما كان في مكان ما أمّ أخرى تنتظر سريراً أو دواءً. لو وقّعت، لكنك قد أخذت من أنفاسها لتزيد أنفاسي. وما كانت حياتي لتطيب لي بذلك.

شعر يحيى أن الغرفة الضيقة تتسع فجأة. فالحق حين يُقال بصفاء يفتح في الجدران نوافذ لا تراها العين.

مدّت أمّه يدها إلى رأسه، ومسحت شعره كما كانت تفعل حين يعود صغيراً من المدرسة متعباً.

— يا يحيى، نحن لا نملك أن نختار كل ما يقع علينا، لكننا نملك ألا نصير أسوأ بسببه. إن افترقنا بالفقر ضيف، وإن مرضنا فالمرض عابر، أما إذا بعنا قلوبنا، فمن يعيدها إلينا؟

أمسك يدها وقبلها.

— أخشى القادم.

— وأنا أخشاه.

نظر إليها متعجبًا. كان ينتظر منها كلمة تنفي الخوف، لكنها لم تفعل.

قالت:

— الإيمان لا يجعلنا حجارة يا بُني. نحن نخاف ونتألم ونضعف، لكننا لا نمح الخوف حق اختيار الطريق.

في المساء، انتشر الخبر في الحي أسرع مما توقع يحيى.

كان للفقر آذان طويلة؛ لأن الناس فيه يعيشون قريبين بعضهم من بعض، حتى إن عطسة في بيت قد تصبح خبرًا في آخر الزقاق. جاء العم صابر، صاحب البقالة، وجلس قرب الباب، ثم تبعه خال يحيى، عبد الكريم، رجل ممتلئ الجسد، حاد الصوت، يرى أن الحكمة هي القدرة على الانحناء قبل أن تصطدم الرأس بالسقف.

ما إن سمع التفاصيل حتى ضرب كفًا بكف.

— يا ابن أختي، أنت لا تعرف كيف تُعاش الدنيا!

قالت الأم من فراشها:

— بل عرف كيف لا تبتلعه.

التفت عبد الكريم إليها.

— يا أختي، لا تزيديه عنادًا. المبادئ جميلة حين يكون في البيت طعام، أما حين يمرض الناس فلا بد من شيء من المرونة.

كان العم صابر صامتًا، يمرر مسبحته بين أصابعه وينظر إلى الأرض.

قال يحيى:

— أيّ مرونة تقصد يا خالي؟

— توقع، يا رجل! مجرد توقع. هل سرقت بيدك؟ هل حملت المال إلى بيتك؟ هؤلاء يفعلون ما يريدون، سواء وقّعت أم لم توقّع.

— وإذا كان فعلي لا يغيّرهم، فهو يغيّرني أنا.

لوح عبد الكريم بيده.

— هذا كلام الكتب. الحياة لا ترحم من يعيش في الكتب.

ابتسم يحيى ابتسامة شاحبة.

— وربما لا ترحم من يعيش بلا كتاب يهديه.

ضاق وجه خاله.

— اسمع، أنا أكبر منك، وقد رأيت الدنيا. الناس لا يسألون كيف حصلت على المال، بل يسألون: ماذا تملك؟ لن يقف أحد إلى جوارك عندما تعجز عن شراء الدواء.

رفع العم صابر رأسه لأول مرة وقال:

— لكنه سيقف إلى جوار نفسه.

نظر إليه الجميع.

تابع بصوته المتعب:

— وليس قليلاً أن يجد المرء نفسه إلى جواره حين يتركه الناس.

ساد الصمت لحظة. ثم نهض عبد الكريم غاضباً، وعدّل ثوبه.

— أنتم تصلحون للحديث في المساجد، لا لإدارة البيوت. بعد أسبوع ستعرفون أن الخبز لا يُخبز بالكلمات.

خرج وهو يتمتم. بقي صوته يتراجع في الزقاق حتى ابتلعه ضجيج الأطفال.

اقترب العم صابر من يحيى، ووضع في يده مبلغاً صغيراً.

— خذه لدواء أمك.

حاول يحيى أن يرده.

— لا أستطيع.

قبض الرجل على يده.

— حين ماتت زوجتي، بقي دين الدواء في عنقي ستة أشهر. لم يطالبني الصيدلي، ولم يفضح عجزتي. وكان يقول لي كلما ذهبت إليه: بعض الديون يُسددها الله عن عباده بأيدي لا يعرفونها. خذ، ودع لي فرصة أن أكون يدًا هذه المرة.

نظر يحيى إلى وجهه المجعدّ، فرأى فيه كرامة تمنح ولا تتعالى، ورحمة لا تجرح المحتاج بإظهار فضلها.

أخذ المال.

— سأعيده إليك.

قال العم صابر وهو ينهض:

— أعدّه إلى من يحتاجه حين تقدر، وهكذا يبقى الخير ماشياً بين الناس.

بعد العشاء، خرج يحيى إلى سطح البيت.

كانت أسطح المدينة متجاورة كصفحات كتاب قديم؛ خزانات ماء سوداء، وهوائيات مائلة، وحبال غسيل تحمل أثواب الفقراء إلى الهواء بحرية لا يملكونها في حياتهم. في البعيد ارتفعت أضواء الأبراج التي كانت مؤسسته تشغل أحدها. بدت من هنا مثل نجوم مصنوعة، شديدة اللمعان، قليلة الدفء.

أخرج هاتفه فوجد رسائل كثيرة. بعضها يسأله بفضول، وبعضها يعاتبه، وبعضها يسخر في لطف أشد إيلاماً من السخرية الصريحة.

أما سامر، فقد كتب له:

وقّع هشام بدلاً عنك. صدر قرار تعيينه هذا المساء. يبدو أن العالم لم يتوقف.

قرأ يحيى الرسالة وأغلق الهاتف.

كان هشام أصغر منه خبرة، وقد جاء إلى المؤسسة بعده بثلاث سنوات. تخيلته الآن جالسًا في المكتب الواسع، يلمس ذراع المقعد الجديد، ويتصل بزوجته ليبشرها بالراتب والسيارة. شعر بوخزة لم يشأ أن يسميها حسدًا، لكنها كانت قريبة منه.

فالإنسان لا يتحرر من إغراء الدنيا لمجرد أنه رفضها مرة. قد يرفضها بيده، ثم يقضي الليل كله يتخيلها في يد سواه.

راح يحيى يسير فوق السطح جيئةً وذهابًا. سأل نفسه للمرة الأولى سؤالاً مخيفًا: ماذا لو كان خاله محققًا؟ ماذا لو لم يكن موقفه ثابتًا، بل ضربًا من الكبرياء الأخلاقي؟ ماذا لو أحب أن يرى نفسه نقيًا أكثر مما أحب إنقاذ أمه؟

كان يعرف أن النفس قادرة على ارتداء ثياب الفضيلة كما ترتدي الرذيلة. وقد يترك الإنسان المال لا لله، بل ليحصل على صورة أجمل لنفسه. وهذا لون من الشهوة لا يظهر في الحسابات.

جلس قرب الجدار، وأسند رأسه إليه.

قال في سرّه: يا رب، أنت تعلم أنني ضعيف. فلا تجعل رفضي بابًا للعجب، ولا حاجتي بابًا للسقوط.

ثم تذكر أباه.

كان قد مضى على وفاته اثنا عشر عامًا، غير أن بعض الموتى لا يغادرون البيوت؛ تتحول أجسادهم إلى تراب، وتبقى كلماتهم جالسة في أماكنها القديمة.

رآه في ذاكرته ليلة شتاء بعيدة، عائداً من عمله في المخزن، وثيابه مبتلة بالمطر. يومها كان يحيى في السادسة عشرة، وقد غضب لأن أباه رفض أخذ كيس من السكر سمح المدير للعمال بحمله.

قال له الصبي يومئذ:

— الجميع أخذوا، لماذا تعيد أنت الأشياء دائماً؟

خلع الأب حذاءه المبلل، وقال:

— لأن الجميع لن يدخلوا معي قبري.

ضحك يحيى ساخرًا:

— وما علاقة كيس السكر بالقبر؟

وضع أبوه يده على كتفه وقال:

— يا بني، الأشياء الصغيرة تعرف الطريق إلى القلب. اليوم كيس سكر، وغداً صندوق، وبعد غد لا تعود تعرف أيّ جزء منك بيع أولاً.

ثم دخل المطبخ وجلس قرب زوجته، وأكل خبزاً يابساً مغموساً في الشاي، كأنه يملك الدنيا.

لم يفهم يحيى أباه يومها. كان يراه رجلاً صالحاً، لكنه ضعيف الحيلة؛ مات ولم يترك لهم بيتاً ولا مالاً ولا أرضاً. ترك ديناً صغيراً، وصندوق أدوات قديماً، وسمعة طيبة لا تُصرف في المصارف.

أما الآن، وهو جالس تحت السماء، فقد أدرك أن أباه لم يتركهم فقراء تمامًا.
لقد خبأ لهم ثروة في موضع لا تصل إليه أيدي اللصوص، ثم مضى.

عند منتصف الليل، سمع يحيى صوت شيء يسقط في الغرفة.

نهض مسرعًا، ونزل الدرج.

وجد أمّه على الأرض قرب فراشها، وإلى جوارها كأس الماء مكسورًا. كان
وجهها شاحبًا، وأنفاسها تتقطع كخيوط يشده مجهول من الطرف الآخر.

جثا عندها مذعورًا.

— أمي!

فتحت عينيها بصعوبة.

— لا تخف... دوار فقط.

حملها بين ذراعيه. كانت خفيفة إلى حد أفزعها؛ كأن المرض أكل من جسدها
في صمت، ولم يترك له إلا القدر الذي يسمح للأُم أن تبتسم أمام ابنها.

صرخ ينادي أخته مريم، ثم اتصل بسيارة أجرة. لم تمض دقائق حتى كانا في
الطريق إلى المستشفى.

كانت المدينة ليلاً أقل كذبًا. تختفي واجهات المتاجر، وتُطفأ الإعلانات،
وتتساوى الأبنية في الظلمة. وفي المقعد الخلفي، وضع يحيى رأس أمّه على
ركبته، وأمسك يدها الباردة.

كلما تأوّهت، عاد مكتب منصور إلى ذهنه: الملف الأزرق، الراتب المضاعف، بطاقة التأمين الصحي، السيارة.

وشعر لأول مرة أن الفتنة لا تنتهي عندما تقول لها: لا. إنها تتبعك إلى بيتك، وتقف عند فراش مريضك، ثم تعيد عرضها عليك بصوت أكثر إقناعًا.

وصلوا إلى المستشفى الحكومي، فوجدوا الممرات مزدحمة. أطفال يبكون، رجال ينامون على المقاعد، امرأة مسنة تتأوه في الزاوية، وممرض يركض بين الغرف بوجه أنهكه الاعتياد على الألم.

فحص الطبيب أمّه، ثم طلب تحاليل عاجلة وصورة للقلب.

وقف يحيى أمام نافذة المحاسبة، وأخرج ما في جيبه. عدّ الموظف النقود ثم قال ببرود:

— المبلغ ناقص.

— ابدأوا الفحوص، وسأحضر الباقي.

— لا نستطيع قبل الدفع.

— حالتها لا تحتمل.

رفع الموظف كتفيه.

— هذه التعليمات.

في تلك اللحظة فهم يحيى كيف يتحول النظام، حين يخلو من الرحمة، إلى جدار يتحدث.

ابتعد عن النافذة، وأخرج هاتفه. بحث في الأسماء. لم يكن الوقت مناسبًا للكرامة المجروحة ولا للخجل. اتصل بخاله عبد الكريم، فلم يرد. اتصل بسامر، ظل الهاتف يرن طويلاً، ثم انقطع.

بقي اسم واحد يستطيع أن يحل الأمر كله.

منصور الراوي.

وقف يحيى في آخر الممر. كان الاسم يلمع أمامه من جديد، كأنه باب لم يُغلق.

ضغط زر الاتصال.

رن الهاتف مرة، ثم مرتين.

وقبل أن يجيبه منصور، جاء صوت من خلفه:

— يحيى؟

التفت.

كان الدكتور هاشم، صديق أبيه القديم، يقف مرتدياً معطفه الأبيض. اقترب منه، ونظر إلى أمّه الممددة على السرير، ثم إلى وجهه.

— ماذا حدث لخالة خديجة؟

شرح له يحيى سريعًا.

أخذ الطبيب الأوراق من يده، وكتب عليها شيئاً، ثم قال للممرض:

— أدخلوها فوراً، والفحوص على مسؤوليتي.

ظل يحيى واقفاً، والهاتف في يده. وفي اللحظة نفسها جاءه صوت منصور من الطرف الآخر:

— نعم يا يحيى؟

نظر إلى الباب الذي أدخلت منه أمّه. ثم قال:

— عذراً، اتصلت بك عن طريق الخطأ.

سكت منصور لحظة، كأنه فهم كل ما لم يُقل.

ثم قال:

— الأبواب لا تبقى مفتوحة طويلاً.

أجابه يحيى:

— ولا كل باب مفتوح يستحق أن ندخله.

أغلق الهاتف.

جلس على المقعد المعدني، وأخفى وجهه بين كفيه. لم يشعر هذه المرة بأنه انتصر؛ شعر فقط بأن الله أرسل له فسحة صغيرة قبل أن تنكسر مقاومته.

اقترب الدكتور هاشم وجلس إلى جواره.

— لا تقلق. حالتها مستقرة الآن، لكننا نحتاج إلى متابعة جادة.

شكره يحيى، ثم قال:

— جئت في اللحظة المناسبة.

ابتسم الطبيب.

— أبوك جاءني مرة في اللحظة المناسبة أيضًا. كنت طالبًا، ولم أملك رسوم الفصل الأخير. باع آلة النجارة التي كان يعمل بها وأقرضني المال. وحين أردت إعادته، قال لي: سدّده لإنسان لا يعرفني.

أطرق يحيى رأسه.

ها هو الخير الذي فعله أبوه قبل ثلاثين عامًا يعود في ممر مستشفى، مرتديًا معطف طبيب.

قال الدكتور هاشم:

— بعض الأعمال الصالحة تسافر أكثر من أصحابها يا يحيى. نظنها انتهت لأنها غابت عن أعيننا، لكنها تظل تدور في الأرض حتى تعود إلى أبنائنا في ساعة ضيق.

نظر يحيى من خلف الزجاج إلى أمّه، وقد هدأت أنفاسها.

وفي أعماقه، انفتح معنى لم يعرفه من قبل: ليس اليقين أن ترى الطريق كله، بل أن تخطو في موضعك الصغير، مؤمنًا بأن الله من وراء الجدار تدبيرًا لا تراه.

ولكنه لم يكن يعلم أن هذه الفسحة لم تكن نهاية الضيق.

ففي صباح اليوم التالي، بينما كان جالساً إلى جوار سرير أمّه، وصلته صورة من رقم مجهول. فتحها، فرأى توقيعاً منسوخاً أسفل العقد المزور الذي رفضه.

وتحت الصورة كتبت جملة واحدة:

الآن صرت شريكاً، سواء رضيت أم لم ترض.

الفصل الثالث

التوقيع الذي لم تكتبه اليد

ظل يحيى يحدّق في الصورة حتى خُيِّل إليه أن اسمه المكتوب أسفل العقد ليس حروفاً، بل أصابع تمتد من الورقة لتقبض على عنقه. كبر الصورة.

كان التوقيع متقناً إلى حدّ مخيف. الانحناءة الصغيرة تحت الياء، والخط الصاعد في آخر الاسم، وحتى النقطة التي اعتاد أن يضعها على عجل فوق الحرف؛ كلها في مواضعها. لم يكن تزويراً صنعته يد مبتدئة، بل نسخة مسروقة من شيء وقّعه من قبل، ثم نُقلت إلى العقد بعناية. قرأ الرسالة مرة أخرى:

الآن صرتَ شريكاً، سواء رضيت أم لم ترضَ.

رفع عينيه إلى سرير أمّه. كانت نائمة بعد ليلة طويلة من الفحوص، ووجهها ساكن تحت الضوء الأبيض، كأن التعب أعادها طفلة عجوزاً لا تملك من الدنيا إلا نفساً يتردد ببطء.

أغلق الهاتف.

لم يشأ أن يوقظها بخوف جديد. لقد حملت معه فقر البيت ومرض الجسد، ولم يبق إلا أن يحمل إليها تهمة لم يرتكبها.

خرج إلى ممر المستشفى. كانت رائحة المطهرات قوية، لكنها لم تستطع أن تخفي رائحة القلق التي تتشابه في كل المستشفيات. جلس عند النافذة، واتصل بالرقم المجهول. جاءه صوت آلي يخبره بأن الهاتف مغلق.

أرسل رسالة:

من أنت؟ ومن زوّر توقيعِي؟

انتظر. لم تصل الإجابة.

مرّت دقائق بدت له أطول من الليل السابق. ثم اهتز الهاتف برسالة جديدة:

من الحكمة أن تعتبره توقيعك. ملف والدتك الطبي وصل إلينا، ويمكن أن تتولى المؤسسة علاجها كاملاً. عُد إلى عملك، وسننهي سوء التفاهم.

لم يكن التهديد صريحًا، لكنه كان أشد قسوة من التهديد. فالذي أرسل الرسالة لم يقل: سنؤذي أمك، بل قال له من طرف خفي: نحن نعرف موضع ضعفك، ونستطيع أن نمدّ إليه يدًا تبدو رحيمة.

نهض يحيى، ومشى إلى آخر الممر. اتصل بسامر.

أجابه هذه المرة بصوت ناعس:

— يحيى؟ كيف حال الوالدة؟

— من أخذ نسخة توقيعِي؟

ساد الصمت.

تغيّر صوت سامر:

— ماذا تقصد؟

— العقد الذي رفضته يحمل توقيعني الآن.

— هل أنت متأكد؟

— رأيته بعيني.

سمع يحيى حركة في الطرف الآخر، كأن سامر نهض من فراشه وأغلق بابًا.

— اسمع، لا تتحدث في الهاتف عن هذا.

— لماذا؟

— لأنك لا تعرف مع من تتعامل.

— وأنت تعرف؟

صمت سامر ثانية.

قال يحيى:

— سامر، أريد جوابًا واحدًا: هل رأيت العقد بعد خروجي؟

— رأيته على مكتب هشام.

— وهل كان يحمل توقيعني؟

— لم أقترّب منه.

— أنت تكذب.

جاءه صوت سامر متوترًا:

— وأنا أحاول أن أحميك! ابتعد عن الأمر يا يحيى. لقد خرجت من المؤسسة، فاعتبر نفسك نجوت.

نظر يحيى إلى الصورة على هاتفه.

— لم أخرج. لقد أخرجوني من الباب وأعادوا اسمي من النافذة.

— مزّق الرسالة وانسها.

— كيف أنسى تهمة تحمل توقعي؟

— لأن الذين يملكون العقد يملكون شهودًا، ومحامين، وعلاقات. وأنت ماذا تملك؟

نظر عبر زجاج النافذة إلى أول خيط من الشمس وهو يشقّ الغيم.

— أملك أنني لم أوقع.

ضحك سامر بمرارة.

— الحقيقة وحدها لا تكفي دائمًا.

قال يحيى:

— لكنها الشيء الوحيد الذي إذا تركته، فلن يبقى لي ما أدافع به عن نفسي.

وقبل أن يرد سامر، سمع يحيى صوتًا خلفه:

— مع من تتحدث يا بُني؟

التفت. كانت أمّه واقفة عند باب الغرفة، تتكئ على الحائط. بدا عليها الضعف، لكن عينيها كانتا يقظتين.

أغلق الهاتف وأسرع إليها.

— لماذا نهضت؟

— لأنك خرجت تحمل وجهًا غير الذي دخلت به.

أعادها إلى السرير، وسوى الوسادة خلف ظهرها. حاول أن يشغلها بالسؤال عن الألم، لكنها أمسكت يده.

— ماذا حدث؟

— لا شيء يستحق أن تتعبي بسببه.

— الأشياء التي لا تستحق لا تجعل يدك باردة هكذا.

تردد قليلاً، ثم أراها الصورة والرسالتين.

قرأتها بصمت. لم تتغير ملامحها كثيراً، لكن أصابعها أطبقت على حافة الغطاء.

قالت:

— وهل يستطيعون إثبات أنك وقّعت؟

— إذا كان التزوير متقنًا، فقد يستطيعون إقناع الناس.

— سألتك عن الإثبات، لا عن الناس.

— الناس يصدّقون الورقة يا أمي.

رفعت نظرها إليه.

— والورقة من يصدقها عند الله؟

تنفس بعمق.

— القضية ليست في الآخرة وحدها. قد يُسجن الإنسان ظلمًا، وقد تُشوّه سمعته، وقد يعيش عمرًا كاملاً يدافع عن شيء لم يفعله.

هزّت رأسها.

— نعم. الحق لا يمنع الألم دائمًا، لكنه يمنع أن نصير مستحقين له. لا تعدني بأنك لن تُسجن أو تُتّهم؛ فأنت لا تملك ذلك. عِدني فقط ألا تحمل عنهم ذنبهم خوفًا مما قد يفعلون.

كانت كلماتها صلبة، لكن يحيى رأى الخوف خلفها. الأم تستطيع أن تخفي وجع جسدها، أما خوفها على ابنها فيظهر في أصغر ارتجافة.

قال:

— لن أعود إليهم.

— ولا تكن متهورًا. الثبات ليس أن تقف في وجه السهم مكشوف الصدر، بل أن تحمي الحق كي يبلغ موضعه.

سألها:

— ماذا أفعل؟

— ابدأ من المكان الذي يختبئ فيه الكذب عادة: التفاصيل.

غادر يحيى المستشفى بعد أن اطمأن إلى استقرار حالتها، واتجه إلى مقهى صغير قرب المحكمة. هناك كان ينتظره صديقه القديم نادر العنسي، محام شاب شاركه سنوات الجامعة، قبل أن تفرق بينهما طرق الحياة.

كان نادر نحيلًا، شديد الانتباه، ينظر إلى الكلام كما ينظر الجراح إلى صورة أشعة؛ لا يكتفي بما يظهر منها، بل يبحث عما يختبئ في الظلال.

استمع إلى القصة كاملة، ثم أخذ الهاتف وتأمل صورة العقد.

— هذه ليست مجرد محاولة لإجبارك على الصمت.

— ماذا إذن؟

— هم يصنعون رجلًا يتحمل السقوط إذا انكشف الملف.

شعر يحيى ببرودة تسري في ظهره.

قال نادر:

— توقيعك هنا مهم لسببين: كنت مسؤولاً عن مراجعة الحسابات، ولم تعد موظفًا لديهم. إذا بدأت التحقيقات، سيقولون إنك تلاعبت بالأرقام ثم هربت. وحين تُوجَّه التهمة إليك، ستبدو إقالتك دليلاً على نزاهتهم.

— لكن قرار الفصل صدر بعد رفضي.

— وهل لديك ما يثبت سبب الفصل؟

صمت يحيى.

— هل سجّلت حديثك مع منصور؟

— لا.

— هل شاهد أحد عرض المنصب عليك؟

— لا.

— هل احتفظت بنسخة من العقد قبل تزويره؟

فكّر يحيى في الظرف الذي أعاده إلى الإدارة، ثم قال:

— لا.

أعاد نادر الهاتف إليه.

— لديهم ورقة، ولديك رواية.

— أنت تتحدث كما لو أنني خسرت القضية.

— أنا أخبرك بحجم المعركة، كيلا تدخلها بطمأنينة الجاهل.

اقترب النادل ووضع كوبَي الشاي. انتظر نادر حتى ابتعد، ثم قال:

— هل توجد مراسلات داخلية؟ بريد إلكتروني؟ سجل دخول إلى النظام؟ أي شيء يثبت أنك رفضت اعتماد الحسابات؟

تذكر يحيى ملاحظة كتبها في برنامج المراجعة قبل استدعائه إلى مكتب منصور.

— وضعت تنبيهًا على أربع فواتير، وكتبت أنها تحتاج إلى مستندات أصلية.

— هل يستطيعون حذفه؟

— المدير التقني يستطيع، لكن النظام يحتفظ بسجل التعديلات في الخادم.

— من يملك الوصول إليه؟

تردد يحيى.

— سامر.

رفع نادر حاجبه.

— الرجل الذي طلب منك أن تنسى الأمر؟

— نعم.

— إذن عليك أن تعرف أولاً: هل هو خائف منك، أم خائف عليك؟

كان سامر يغادر المؤسسة عند الخامسة، حين وجد يحيى واقفاً قرب سيارته.

تلقت حوله بسرعة.

— ألم أقل لك ألا تأتِ إلى هنا؟

— قلت أشياء كثيرة، ولم تجب عن شيء.

فتح سامر باب السيارة.

— ليس هذا مكاناً مناسباً.

أمسك يحيى الباب قبل أن يغلقه.

— إذن اختر مكاناً مناسباً، وسأتبعك.

نظر سامر إلى وجه صديقه، ثم إلى نوافذ المبنى. وفي الطابق العلوي كانت ستائر مكتب منصور نصف مغلقة، كجفن يراقب الشارع.

قال:

— اركب.

قاد سامر مسافة طويلة دون كلام، ثم توقف عند أرض فضاء في طرف المدينة. كانت الشمس تغرب خلف التلال، وتترك على الأفق جرحاً أحمر واسعاً. نزل من السيارة وأشعل سيجارة، مع أنه كان قد أخبر يحيى قبل شهرين أنه أقلع عن التدخين.

قال يحيى:

— منذ متى عدت إليها؟

نظر سامر إلى السيارة بين أصابعه.

— منذ بدأت أعمل في أشياء ينبغي ألا أعمل فيها.

سكت يحيى.

ألقي سامر نفساً طويلاً، ثم قال:

— لم أزور توقيعك.

— لكنك تعرف من فعل.

— لا أعرف على وجه اليقين.

— من يملك نسخة منه؟

— الجميع تقريباً. توقيعات الموظفين محفوظة في النظام لإصدار بعض المخاطبات.

— وهل يمكن نقلها إلى عقد؟

— يمكن لمن يملك صلاحية عالية.

— ومن يملكها؟

ابتسم سامر بسخرية متعبة.

— الذين سيحققون في الأمر إذا اشتكيت.

هبت ربح خففة؁ فتناثر غبار دقق حول أقدامهما.

قال فحى:

— أحتاج إلى سجل التعديلات الذي فثبت أننى اعترضت على الفواتفر.

أدار سامر وجهه إليه بعنف.

— هل فرفد أن فُدخلنى السجن؟

— أرفد منك نسخة فقط.

— وكل دخول إلى الخادم مسجل. سفعرفون أننى أخذتها.

— وأنت الآن ماذا تفعل معهم فف سامر؟

اشتد وجهه.

— أأول أن أعفش.

— كلنا نأول.

— لا. أنت فأول أن فعفش بالصورة التى فرضفك عن نفسك. أما أنا فلدى زوجة وطفلان وقرض منزل. لفس عندى فرف البطولة.

فلقى فحفى العبارة بصمت. ثم قال:

— لا أطلب منك بطولة.

— بل فطلب منى أن أأثار بفن أطفالى وضمفرى.

— وأنا لا أملك حق الاختيار عنك.

— ولكنك جئت لتضع السؤال أمامي ثم تغادر نظيفاً!

كان في صوت سامر وجع تراكم طويلاً. ألقى السيجارة وداسها بحذائه.

— أظن أنني لا أعرف أنهم يسرقون؟ أظن أنني أنام مرتاحاً؟ في البداية طلبوا مني تعديل تاريخ فاتورة. قلت: أمر بسيط. ثم حذف اسم. ثم إضافة مستند. وفي كل مرة كنت أقول إن هذا آخر شيء. لكن الذنوب لا تدخل حياتنا كجيش يا يحيى؛ تدخل كلاجئ واحد، ثم تفتح الحدود لأهله جميعاً.

نظر إليه يحيى طويلاً.

قال سامر:

— والآن لم أعد أعرف أين بدأت، ولا كيف أخرج.

— ابدأ من أول شيء تستطيع رفضه.

ضحك ضحكة قصيرة يائسة.

— سهل عليك أن تقول ذلك. أنت خرجت في يوم واحد.

— لم أخرج يا سامر. ها أنا مهدد بالسجن، وأمّي في المستشفى، ولا أعرف من أين آتي بإيجار الشهر. لا تتخيل أن الطريق الصحيح مفروش بالطمأنينة. أنا خائف مثلك.

نظر سامر إليه كأنه يسمع اعترافاً لم يتوقعه.

تابع يحيى:

— الفرق الوحيد أن خوفي لم يحصل بعد على راتب.

أدار سامر وجهه إلى الأفق. كانت الحمرة تنحسر، والظلام يصعد من أطراف الأرض.

قال بعد صمت:

— يوجد أرشيف احتياطي خارج الخادم الرئيسي. يُحدّث كل ليلة، ولا يعرف به إلا فريق التقنية. يمكن أن تكون ملاحظتك ما زالت هناك.

— هل تستطيع الوصول إليه؟

— أستطيع.

— هل ستفعل؟

ظل سامر ساكنًا طويلاً. ثم قال:

— أعطني يومين.

— لا أملك يومين. قد يقدّمون بلاغًا في أي لحظة.

— إذا استعجلتني، فلن أفعل شيئًا.

هز يحيى رأسه.

— يومان.

فتح سامر باب السيارة، ثم توقف.

— إذا حصلت على النسخة، فلن يكفي ذلك. سيقولون إنك أضفت الملاحظة بعد توقيع العقد لتبرئ نفسك.

— ماذا نحتاج أيضاً؟

— النسخة الأصلية من تسجيل كاميرات الطابق يوم استدعائك إلى مكتب منصور. ستظهر أنك دخلت تحمل الظرف وخرجت به، ثم سلّمته إلى السكرتارية.

— ومن يستطيع الوصول إليها؟

نظر سامر إليه وقال:

— هشام.

الاسم الذي وقّع بدلاً منه. الرجل الذي جلس الآن على كرسيه، وأخذ المنصب والسيارة والراتب.

قال يحيى:

— وهل سيساعدني؟

أجاب سامر:

— إذا كان لا يزال قادراً على مساعدة نفسه.

عاد يحيى إلى المستشفى ليلاً. وجد أمّه مستيقظة، ومريم نائمة على الكرسي قربها. جلس إلى جوار السرير وأخبرها بما حدث، دون أن يذكر كل المخاطر.

قالت:

— وصديقك سامر؟

— يخاف على أولاده.

— خوفه مفهوم.

— لكنه شاركهم.

— وضعف الإنسان لا يصير صواباً لأنه مفهوم. غير أن من يريد إنقاذ الغريق لا يقف على الشاطئ يوبخه لأنه ابتلّ.

نظر إليها متأملاً.

— أحياناً أشعر أنك لا تتحدثين عن سامر وحده.

ابتسمت.

— كلنا نغرق بدرجات مختلفة يا يحيى، وكلنا نحتاج إلى يد لا إلى محكمة.

ثم أشارت إلى حقيبته.

— أخرج مصحفك واقرأ لي.

فتح المصحف الصغير الذي أعاده من مكتبه، وراح يقلب الصفحات حتى وقعت عيناه على قوله تعالى:

(وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ).

توقف.

لم يقرأ الآية بصوت مرتفع أول الأمر. ظل ينظر إليها كأنها لم تكن مكتوبة في الصفحة، بل نزلت في تلك اللحظة إلى جواره. لاحظت أمه سكوته، فقالت:

— ماذا وجدت؟

قرأها.

أغمضت عينيها وقالت:

— لا تتعجل كيف يعود المكر إليهم. يكفيك أن تعلم أنه لا يعرف بيتًا أخيرًا غير بيت صاحبه.

في تلك الليلة نام يحيى على المقعد قرب سريرها. كان نومه متقطعًا، تعبده وجوه وأرقام وأبواب زجاجية. وقبل الفجر بقليل، استيقظ على اهتزاز هاتفه.

كانت رسالة من سامر:

لا تنتظر يومين. تعال الآن إلى المستودع القديم خلف المؤسسة. وجدت النسخة الاحتياطية، ووجدت معها شيئًا أخطر.

نهض يحيى بهدوء، وغطى أخته بمعطفه، ثم قبل رأس أمه النائمة وغادر.

كانت الشوارع خالية إلا من أضواء متباعدة، والريح تدفع الأوراق اليابسة أمامه كأنها تستعجلها إلى مصير مجهول. وحين وصل إلى المستودع، وجد الباب الخلفي مفتوحًا، والظلام يملأ الداخل.

نادى بصوت خافت:

— سامر؟

لم يجبه أحد.

دخل خطوتين. كانت رائحة الغبار والزيوت القديمة ثقيلة، وفي آخر الممر يومض ضوء شاشة حاسوب.

اقترب.

كان الكرسي مقلوبًا، والملفات مبعثرة على الأرض، وعلى حافة الطاولة بقعة دم صغيرة لم تجف بعد.

أما سامر فلم يكن هناك.

وبجانب الحاسوب، وجد يحيى ظرفًا أبيض كُتب عليه بخط مرتجف:

إلى يحيى... إذا لم أصل إليك.

الفصل الرابع

حين يصير الصمت شريكاً

مدّ يحيى يده إلى الظرف، ثم سحبها قبل أن تلمسه.

كان المكان أكثر اضطراباً مما ينبغي، وأهدأ مما يحتمل. كرسي مقلوب،
أدراج مفتوحة، أوراق ممزقة، وبقعة دم تقف على حافة الطاولة كعلامة ترقيم
حمراء في نهاية جملة لم تكتمل.

أنصت.

في الخارج كانت الريح تمرّ بين صفائح المستودع فتُصدر أنيناً خافتاً، وفي
الداخل ظل الحاسوب يومض بضوء أزرق بارد. لم يسمع أنفاس سامر، ولا
وقع أقدام، ولا حركة توحى بوجود أحد.

أخرج هاتفه واتصل به.

رنّ الهاتف في مكان قريب.

تتبع الصوت حتى وصل إلى صندوق خشبي خلف الطاولة. وجد الهاتف
تحتة، شاشته مشروخة، وعلى غلافه أثر تراب ودم.

عاد بنظره إلى الظرف.

قال له خوفه: خذه وغادر.

وقال له شيء أكثر يقظة: إذا لمستّه، فقد تمحو أثرًا أو تترك أثرًا يُستخدم ضدك.

التقط صورة للمكان من موضعه، ثم اتصل بنادر.

أجابه المحامي بصوت مثقل بالنوم:

— يحيى؟ ماذا حدث؟

— سامر اختفى.

جلس نادر في الطرف الآخر؛ سمع يحيى حركة الفراش وصوت مصباح يُضاء.

— ماذا تعني اختفى؟

شرح له الرسالة، والمستودع، وبقعة الدم، والظرف.

قال نادر بصرامة:

— لا تلمس شيئًا، ولا تغادر قبل أن تتصل بالشرطة.

— وإذا كانت الشرطة معهم؟

— عدم اتصالك سيجعل وجودك هنا يبدو أسوأ. اتصل الآن، وسجّل وقت البلاغ.

نظر يحيى إلى الظرف مرة أخرى.

— مكتوب عليه اسمي.

— لا تفتحه.

— قد يكون فيه ما يدل على مكان سامر.

— وقد يكون وُضع ليجعلك حاملاً للدليل الذي يريدون. انتظر.

اتصل يحيى بالشرطة. أعطاهم العنوان، وذكر أنه جاء بناءً على رسالة من زميله، وأنه وجد آثاراً تثير الشبهة. ثم وقف قرب الباب ينتظر.

مرت عشر دقائق.

كانت كل دقيقة تمنح خياله مساحة جديدة لتعذيبه. رأى سامر مصاباً في زاوية مظلمة، أو مقيداً في سيارة، أو ملقى في طريق مهجور. وتذكر آخر ما قاله له: أعطني يومين. لكنه ضغط عليه، فاستعجل الرجل العودة إلى المستودع.

هل كان مسؤولاً عما حدث؟

يعرف العقل أن الجريمة لا يحملها إلا مرتكبها، لكن القلب، حين يحب، يجد ألف طريقة لاتهام نفسه.

وصلت سيارة الشرطة، ونزل منها ضابطان وثلاثة أفراد. دخلوا المكان، والتقطوا الصور، ثم رفع أحدهم الظرف بقفاز ووضع في كيس شفاف.

كان الضابط المسؤول رجلاً في الأربعين، اسمه الرائد فؤاد. وجهه هادئ على نحو لا يطمئن ولا يخيف، وصوته مقتصد كأنه لا يريد إنفاق كلمة قبل معرفة قيمتها.

سأل يحيى:

— ما علاقتك بالمفقود؟

— زميلي وصديقي.

— ولماذا طلب منك الحضور إلى هذا المكان قبل الفجر؟

— قال إنه وجد أدلة تثبت تزوير توقيعي.

رفع فؤاد عينيه إليه.

— تزوير توقيعك في ماذا؟

حكى له يحيى القصة منذ استدعائه إلى مكتب منصور. لم يقاطعه الضابط إلا بأسئلة قصيرة عن التوقيات والأسماء والرسائل.

أراه يحيى صورة العقد والتهديدات ورسالة سامر الأخيرة.

قال فؤاد:

— أرسلها إلى هذا الرقم، ولا تحذف الأصل.

ثم أشار إلى الظرف.

— سنفتحه في القسم بحضورك.

وصل نادر بعد قليل، وقد ارتدى ثيابه على عجل. ألقى نظرة على المكان، ثم

اقترب من يحيى وهمس:

— من الآن لا تجب عن سؤال لا تفهم غايته.

قال يحيى:

— سامر في خطر، ولسنا في قضية دفاع عني فقط.

— ولهذا بالضبط يجب ألا تتحول من شاهد إلى متهم قبل أن نجده.

في قسم الشرطة، فُتح الظرف.

كان بداخله مفتاح ذاكرة صغير، وثلاث أوراق مكتوبة بخط سامر. بدأ الرائد فؤاد يقرأها بصمت، ثم أعاد قراءتها ببطء.

طلب يحيى أن يطلع عليها.

تردد الضابط، ثم دفع نسخة مصورة نحوه.

كتب سامر:

يا يحيى،

إذا كنت تقرأ هذه الرسالة، فأما أنني جئتك عن مواجهتك، وإما أن الخروج تأخر حتى صار ثمنه أكبر مما توقعته.

لم يبدأ الأمر بالعقد الذي رفضته. منذ عامين، طلب مني منصور إنشاء حسابات وهمية لموردين بحجة اختبار النظام. بعد ذلك استخدمت الحسابات

في تمرير دفعات من مشروع المستشفى. اعترضت، فقالوا إن المبالغ ستعود قبل إقبال السنة. لم تعد.

كلما حاولت الانسحاب، أظهروا لي مستندًا يحمل اسمي أو أمرًا نفذته بيدي. صنعوا من أخطائنا حبالًا، ثم ربطونا بها واحدًا بعد آخر.

هشام ليس الرأس، ومنصور ليس الرأس أيضًا. هناك من فوقهما، والملف الذي في الذاكرة يحتوي على تحويلات وأسماء وتسجيلات. نسخته حين رأيتهم يضعون توقيعك على العقد. كنت أعرف أنهم اختاروك لتكون الواجهة الأخيرة إذا انكشف المشروع.

توقف يحيى عن القراءة. رفع عينيه إلى فؤاد، فوجد الضابط يراقبه.

عاد إلى الرسالة:

سامحني لأنني صمتُ حين طردوك. كنت أستطيع أن أشهد لك، لكنني خفت على أطفالي. ثم اكتشفت أن الخوف لا يحمي أبناءنا دائمًا؛ أحيانًا يورثهم أبًا لا يستطيع النظر في أعينهم.

في الذاكرة سجل التعديلات الأصلي، وصورة للعقد قبل إضافة توقيعك، ونسخة من مراسلات داخلية. كلمة المرور هي الجملة التي قالها لنا أستاذ محمود يوم التخرج: «لا تجعلوا حاجتكم بابًا يدخل منه اللصوص».

إن وصلتُ إليك، سأشهد بكل شيء. وإن لم أصل، فلا تجعل رسالتي شهادة رجل شجاع. أنا لست شجاعًا؛ أنا فقط تعبت من الخوف.

سامر.

ظل يحيى ممسكًا بالورقة بعد أن انتهى. كان خط سامر يضطرب في السطور الأخيرة، وكأن يده كانت تكتب وهي تلتفت إلى الباب.

قال نادر:

— نحتاج إلى نسخة جنائية من محتويات الذاكرة، مع إثبات سلامتها قبل فتحها.

نظر الرائد فؤاد إليه.

— أعرف عملي يا أستاذ نادر.

— وأنا أعرف كيف تختفي الأدلة حين يعرف بها أشخاص أكثر من اللازم.

ساد توتر قصير.

ثم قال فؤاد:

— ستبقى الذاكرة في حيازتنا الرسمية.

سأله يحيى:

— وماذا عن سامر؟

— سنراجع كاميرات الطرق والمستودع والهواتف. هل له أعداء؟

قال يحيى:

— إذا كانت الرسالة صحيحة، فكل اسم في الذاكرة قد يكون عدوًا له.

أدخل الضابط الذاكرة في كيس الأدلة، وأغلقه بختم خاص. ثم التفت إلى يحيى:

— عليك ألا تغادر المدينة.

ابتسم نادر بلا مرح.

— هل صار موكلي متهمًا؟

— صار آخر شخص استدعاه المفقود إلى مكان يحمل آثار دم، ووجدنا ظرفًا باسمه.

قال يحيى:

— أنا الذي أبلغتكم.

— وهذه نقطة لصالحك، لكنها لا تلغي بقية النقاط.

أدرك يحيى حينها أن الحقيقة لا تدخل الغرفة وحدها؛ تدخل معها احتمالات كثيرة، وبعضها يرتدي وجهها من بعيد.

خرج من القسم بعد شروق الشمس.

كانت المدينة قد بدأت يومها كأن شيئاً لم يحدث. باعة الخبز يصفون الأرغفة، والعمال ينتظرون عند التقاطعات، والطلاب يمشون بحقائبهم الملونة. بدا له غريباً أن يختفي رجل، وتبقى الدنيا قادرة على فتح متاجرها في موعدها.

قال نادر وهو يسير إلى جواره:

— لا تعد إلى البيت وحدك.

— أمي في المستشفى.

— إذن اذهب إليها، لكن لا تتحرك دون أن تخبرني. هؤلاء الآن يعرفون أن الدليل وصل إلى الشرطة، وقد يحاولون التفاوض أو التهديد.

توقف يحيى.

— هل تثق بالرائد فؤاد؟

نظر نادر إلى مبنى القسم خلفهما.

— أثق بالإجراءات إذا كانت مكشوفة، ولا أثق بالأفراد حين تكون المصالح أكبر منهم.

— جواب محام.

— لأن السؤال سؤال رجل يريد طمأنينة لا أملكها.

ركبا السيارة، وانطلقا نحو المستشفى. وفي منتصف الطريق، رن هاتف يحيى. كان خاله عبد الكريم.

أجاب:

— نعم يا خالي.

جاءه الصوت مضطرباً:

— أين أنت؟

— في الطريق إلى المستشفى.

— لا تأتِ.

— لماذا؟

— هناك رجال يسألون عنك.

نظر يحيى إلى نادر.

— من هم؟

— لا أعرف. وصلوا قبل قليل، وسألوا الممرضة عن غرفة أمك. أحدهم يقول إنه من المؤسسة.

شعر يحيى كأن يدًا باردة انغلقت على قلبه.

— هل دخلوا إليها؟

— أنا عند الباب. لم أسمح لهم.

قال نادر فوراً:

— اطلب من أمن المستشفى احتجازهم، واتصل بالشرطة.

وصلت السيارة إلى المستشفى خلال دقائق. صعد يحيى الدرج راكضًا، فوجد خاله واقفًا في الممر، وإلى جواره رجلان بملابس رسمية. كان أحدهما طويلًا، ذا شارب دقيق، يحمل باقة زهور كبيرة؛ كأن الورد يستطيع أن يجعل الزيارة بريئة.

قال الرجل حين رأى يحيى:

— الأستاذ يحيى، كنا ننتظرك.

— من أنتما؟

أخرج بطاقة تعريف.

— نحن من إدارة العلاقات في المؤسسة. جئنا للاطمئنان إلى الوالدة.

نظر يحيى إلى الزهور.

— المؤسسة التي فصلتني بالأمس اكتشفت اليوم أنها تحب أمي؟

ابتسم الرجل.

— حدث سوء فهم، والأستاذ منصور يريد تسوية الأمر بهدوء.

تقدم نادر وقال:

— أي حديث سيكون عن طريقي.

تفحصه الرجل من رأسه إلى قدميه.

— ومن حضرتك؟

— محامي الأستاذ يحيى.

خفتت ابتسامة الرجل.

— لا داعي لتحويل مسألة إدارية إلى قضية.

قال يحيى:

— صديقي مفقود، وتوقيعي مزور، ورجالكم وصلوا إلى غرفة أمي. أظن أن المسألة تجاوزت الإدارة قليلاً.

اقترب الرجل منه، وخفض صوته:

— اسمعني بعقل. المؤسسة مستعدة لإعادتك إلى عملك، ودفع جميع تكاليف علاج والدتك، ومنحك التعويض الذي تراه مناسباً. كل ما عليك أن تفعله هو أن تقول إنك وقّعت العقد قبل فصلك، وإن خلافاً مع الإدارة كان حول الترقية.

— وماذا عن سامر؟

تحرك شيء سريع في عيني الرجل، ثم اختفى.

— لا أعرف شخصاً بهذا الاسم.

— تعمل في المؤسسة ولا تعرف مدير النظام المالي؟

— أنا في العلاقات العامة.

قال نادر:

— ومع ذلك عرفت غرفة والدته يحيى قبل أن تعرف اسم زميلك.

احتدّ وجه الرجل.

— العرض لن يبقى طويلاً.

فتح يحيى باب غرفة أمّه وقال:

— إذن خذه معك قبل أن يفسد.

وضع الرجل باقة الزهور على المقعد.

— فكّر في والدتك.

أمسك يحيى الباقة وأعادها إليه.

— كلما أردتم مني باطلاً، وضعتُم أمّي بيني وبينه. ألا تملكون حجة لا تمر

من سرير مريضة؟

لم يجبه الرجل. استدار وغادر مع رفيقه، وتبعتهما نظرات الممرضين.

دخل يحيى الغرفة.

كانت أمّه جالسة، وقد سمعت بعض الحديث. نظر إليها فوجد في وجهها ألماً

لم يكن من المرض.

قالت:

— يريدون شراءك بعلاجي.

جلس قربها.

— نعم.

— وهل تعلم ما يؤلمني أكثر من هذا الجسد؟

— ماذا؟

— أن يظنوا أنني الباب الذي يدخلون منه إلى ذمتك.

أمسك يدها.

— لن تكوني.

قالت بحزم رقيق:

— إذا متُّ، فلا تجعل موتي حجة عليك. الأعمار لا تزيدها الأموال الحرام، لكنها قد تنزع البركة مما بقي منها.

قال خاله عبد الكريم، الذي ظل واقفاً عند الباب:

— لا تتحدثي عن الموت.

التفتت إليه.

— الموت لا يأتي لأننا ذكرناه، ولا يضيع الطريق لأننا سكتنا عنه.

ثم نظرت إلى يحيى:

— لكنني لا أريد منك تهورًا. سلّم الأمر لمن يستطيع حمايتك.

قال نادر:

— الأدلة لدى الشرطة الآن.

سألته:

— وهل صديق يحيى عندهم أيضًا؟

خفض نادر عينيه.

— لم نجده بعد.

سكنت الأم، ثم رفعت كفيها بالدعاء. لم ترفع صوتها، ولم تطل. قالت كلمات قليلة خرجت من قلب عرف العجز طويلاً فلم يعد يخل منه:

— اللهم رده إلى أولاده، واحفظه من شر ما صنع ومن شر ما يصنعون.

عند الظهر، اتصل الرائد فؤاد.

طلب من يحيى الحضور فورًا.

حين وصل مع نادر، وجد وجه الضابط مختلفًا. لم يكن هادئًا هذه المرة، بل مشدودًا بغضب يحاول أن يبقى مهنيًا.

قال:

— الذاكرة التي وجدناها في الظرف فارغة.

حدّق يحيى فيه.

— هذا مستحيل.

— فُحصت بحضور فنيّين. لا ملفات، ولا آثار حذف حديث.

قال نادر:

— هل كان ختم الكيس سليماً؟

— نعم.

— وهل توجد كاميرا في غرفة الأدلة؟

— نعم.

— نريد الاطلاع على التسجيل.

ضرب فؤاد بالقلم على الطاولة.

— ليس قبل إذن النيابة.

قال يحيى:

— سامر كتب أن الملفات فيها.

— إما أنه أخطأ، وإما أن الذاكرة استُبدلت قبل أن نصل، وإما أن الرسالة

كلها كُتبت لتقودنا إلى فراغ.

— رأيت الظرف على الطاولة ولم ألمسه.

قال نادر:

— وهناك صور التقطها موكلي قبل حضوركم.

أشار فؤاد إلى الحاسوب أمامه.

— الصورة تثبت وجود الظرف، لا محتواه.

ساد الصمت.

ثم فتح الضابط درجًا وأخرج هاتف سامر.

— وجد الفريق التقني رسالة محذوفة أرسلها سامر قبل اختفائه بساعة.

— إلى من؟

أدار الشاشة نحو يحيى.

كان اسم المستقبل: هشام القيسي.

ونص الرسالة:

نفذت ما طلبت. وضعت النسخة المزيفة في الظرف. الأصل معي، ولن

تحصل عليه حتى تضمن خروجي أنا وعائلتي.

شعر يحيى بأن الأرض مالت قليلاً تحت قدميه.

قال فؤاد:

— يبدو أن صديقك لم يكن يحاول إنقاذك وحدك. كان يساومهم أيضاً.

أعاد يحيى قراءة الرسالة. لم يعرف أكان سامر قد عاد إلى خوفه في اللحظة الأخيرة، أم كان يلعب لعبة أخرى، أم أن الرسالة نفسها جزء من الفخ.

قال نادر:

— يمكن تزوير الرسائل كما زُور التوقيع.

— صحيح، ولهذا نبحث.

سأل يحيى:

— أين هشام؟

قال فؤاد:

— لم يحضر إلى المؤسسة اليوم، وهاتفه مغلق.

في تلك اللحظة دخل أحد الأفراد، وانحنى إلى أذن الضابط وهمس له. تغير وجه فؤاد.

نهض والتقط سترته.

— عثرنا على سيارة سامر خارج المدينة.

وقف يحيى.

— وهو؟

تردد الضابط لحظة، ثم قال:

— لا أحد داخل السيارة. لكننا وجدنا دمًا كثيرًا على المقعد الخلفي، ووجدنا في صندوقها بطاقة العمل القديمة الخاصة بك.

نظر نادر إلى يحيى، بينما أكمل فؤاد:

— من هذه اللحظة، لن تغادر القسم.

جلس يحيى ببطء.

ها هو الباطل لا يكتفي بأن يسرق توقيعه؛ لقد بدأ يوزع آثاره في كل مكان، ويبني حوله قفصًا من الأشياء التي يعرفها ولا يعرف كيف وصلت.

وفي المستشفى، كانت أمّه تنتظر عودته، واضعة دواءها قرب النافذة.

أما هو، فكان للمرة الأولى أمام خسارة لا يستطيع أن يشرحها بجملة عن اليقين؛ لأن الحديد حين يقترب من المعصم لا يسمع المعاني الجميلة، ولأن الثبات الذي لا يُختبر في العتمة يظل كلمة لم تعرف وزنها بعد.

الفصل الخامس

ما لا تصل إليه القيود

لم يضعوا القيد في يدي يحيى فوراً، لكنّه شعر به قبل أن يراه.

كان في نظرات العابرين حوله، وفي الباب الذي أُغلق من الخارج، وفي الشرطي الجالس قبالة يتظاهر بقراءة ملف بينما يراقب كل حركة تصدر عنه. بعض القيود تبدأ معنىً قبل أن تصبح حديدًا؛ إذ يكفي أن تُنتزع من الإنسان حرية المغادرة حتى تضيق عليه الغرفة، ولو كانت نوافذها مفتوحة.

جلس نادر إلى جواره، يقلب صور الأدلة على هاتفه.

قال بصوت منخفض:

— بطاقة العمل ليست دليلاً على أنك كنت في السيارة. كانت المؤسسة تحتفظ بنسخ من بطاقات الموظفين القديمة.

— بطاقتي كانت في درج مكثبي.

— وهذا قد يخدمنا.

— إذا لم يقولوا إنني أخذتها قبل خروجي.

رفع نادر عينيه إليه.

— سيقولون أشياء كثيرة. مهمتنا ليست منعهم من الكلام، بل منع كلامهم من التحول إلى حقيقة قضائية.

كان يحيى يسمعه، لكن جزءًا من روحه ظل في غرفة المستشفى. تخيل أمه تسأل عنه كلما فُتح الباب، ومريم تخفي عنها الخبر، وخاله عبد الكريم يدور في الممر غاضبًا من الموقف الذي قاد ابن أخته إلى هذا المصير.

أخرج هاتفه ليتصل، لكن الشرطي مد يده.

— الهاتف سيبقى معنا مؤقتًا.

قال نادر:

— لم يصدر قرار بتوقيفه بعد.

— تعليمات الرائد.

وضع يحيى الهاتف على الطاولة. شعر كأنه سلّم آخر نافذة تصل بينه وبين أهله.

دخل الرائد فؤاد بعد قليل، يحمل ملفًا جديدًا. جلس ولم يبدأ بأسئلة. ظل يتفحص يحيى بصمت، كما لو أنه يريد أن يرى ما وراء الوجه.

قال أخيرًا:

— ظهرت نتائج الفحص الأولي للدم الموجود في سيارة سامر.

انتظر يحيى.

— الدم لسامر.

أغمض عيني لحظة.

— هل الكمية تعني أنه مات؟

— لا نستطيع الجزم. لكنها كبيرة.

سأل نادر:

— وما الذي يربط موكلي بالسيارة غير البطاقة؟

فتح فؤاد الملف.

— كاميرا محطة وقود التقطت سيارة تشبه سيارة يحيى تتبع سامر ليلة اختفائه.

قال يحيى:

— كنت في المستشفى.

— خرجت قبل الفجر.

— ذهبت إلى المستودع بناءً على رسالته.

— والطريق إلى المستودع يمر قرب محطة الوقود.

— إذن من الطبيعي أن تظهر سيارتي.

قال فؤاد:

— ليست هذه المشكلة.

أخرج صورة مطبوعة ودفعها إليه. ظهرت فيها سيارة يحيى، وبجوارها رجل يقف عند نافذة سيارة سامر.

كانت الصورة مشوشة، لكن هيئة الرجل قريبة منه.

قال يحيى:

— هذا ليس أنا.

— السيارة سيارتك.

— ولوحة سيارتي يعرفها من يراقبني. يمكن استبدالها أو تقليدها.

قال الضابط:

— لكل شيء عندك تفسير.

أجابه يحيى:

— لأن كل شيء وُضع ليحتاج إلى تفسير.

مال فؤاد إلى الخلف.

— متى رأيت سامر آخر مرة قبل المستودع؟

— في الأرض الخالية عند طرف المدينة.

— وحدث بينكما خلاف.

نظر يحيى إليه.

— من أخبرك؟

— كاميرا متجر قريب سجلت جزءًا من اللقاء بلا صوت. ظهرتما في نقاش حاد.

— لم يكن خلافًا شخصيًا. طلبت منه مساعدتي في الحصول على سجل التعديلات.

— وضغطت عليه.

— طلبت منه أن يقول الحقيقة.

— ربما خاف أن يفضحك بعد أن شاركتما في التلاعب.

قال نادر بصرامة:

— هذا افتراض لا يليق بمحضر تحقيق.

لكن فؤاد ظل ينظر إلى يحيى.

— وربما هدّك بالأدلة، فذهبت إليه.

شعر يحيى بحرارة تصعد إلى وجهه.

— لقد جاءني سامر طالبًا النجاة، لا مهددًا.

— ورسالته إلى هشام تقول إنه كان يساوم.

— إن كانت الرسالة منه.

طرق فؤاد بأصابعه على الملف.

— أماننا توقيعك على العقد، وبطاعتك في سيارة المفقود، وسيارتك تتبعه،
وأثار خلاف بينكما، وذاكرة فارغة قيل إنها تحتوي على ما يبرئك. أحتاج
إلى أكثر من قولك إن الجميع يكذب.

خفض يحيى بصره إلى الصورة. أحس للحظة أن الأدلة لا تتهمة وحده، بل
تسخر منه. كل شيء حقيقي في ذاته: سيارته، بطاقته، توقيعته، لقاءه بسامر؛
غير أن يدًا مجهولة أعادت ترتيب الحقائق حتى صارت تكذب من غير أن
تتغير ملامحها.

قال بهدوء:

— وأنا أحتاج إلى أكثر من هذه الأشياء لتجعلني قاتلاً.

رد فؤاد:

— لم أقل إنك قاتل.

— لكنك ترتب الكلمة في رأسك.

نهض الضابط.

— ستبقى موقوفًا إلى حين عرضك على النيابة.

حين أُغلق باب الزنزانة، سقط صوت الحديد في قلب يحيى قبل أذنيه.

كانت الغرفة ضيقة، جدرانها رطبة، وفي أعلاها نافذة صغيرة محروسة بقضبان كثيفة. جلس في الزاوية رجلاً؛ أحدهما يحدق في الفراغ، والآخر يغطّي رأسه ببطانية بنية. وعلى الأرض فراش رقيق يحمل روائح غرباء مرّوا من هنا وتركوا شيئاً من خوفهم عالقاً فيه.

أشار الحارس إلى مساحة قرب الباب.

— مكانك هناك.

جلس يحيى.

كان طوال الساعات الماضية يتماسك بقوة الأسئلة والإجابات، أما الآن فلم يعد أمامه أحد يدافع عن نفسه لديه. وحين يغيب الخصم الظاهر، يخرج خصم آخر من داخل الإنسان، يعرف نقاط ضعفه جميعاً.

لو أنك وقّعت من البداية، لكنت الآن قرب أمك.

جاءه الصوت واضحاً.

لو أنك لم تطلب من سامر العودة إلى الخادم، لما اختفى.

لو أنك كنت أليّن قليلاً، لما حدث شيء من هذا.

وضع رأسه بين كفيه.

الندم على الخير من أكثر مداخل الفتنة خفاءً؛ إذ لا يقول للإنسان: افعل الشر، بل يقول: ألم تر ما جرّه عليك امتناعك عنه؟

تذكر أمّه وهي تقول: لا تأتني بشيء يكسرك.

فابتسم بمرارة. ها هو يأتيها الآن مكسور الصورة أمام الناس، متهمًا، موقوفًا، عاجزًا حتى عن الاتصال بها.

رفع الرجل الجالس في الزاوية عينيه.

كان في أواخر الستين، بلحية بيضاء مهملة ووجه نحيل. سأله:

— أول مرة؟

نظر إليه يحيى.

— نعم.

— تظهر على الوجه.

— ماذا يظهر؟

— أن صاحبه ما زال يظن أن الجدران هي أقسى ما في السجن.

قال يحيى:

— وما الأقسى؟

أشار الرجل إلى رأسه.

— ما يدور هنا حين يهدأ المكان.

ثم عاد إلى صمته.

بعد قليل جاء وقت الصلاة. لم يعرف يحيى اتجاه القبلة على وجه الدقة، فسأل الرجل.

أشار إلى زاوية الجدار.

— صلّ هنا.

وقف يحيى. كانت الأرض متسخة، والمكان ضيقًا، والرجل الملفوف بالبطانية نائمًا في موضع السجود. تحرك قليلًا وأفسح له مساحة دون أن يُظهر وجهه.

كبر يحيى.

في الركعة الأولى، تزاхمت الأفكار في رأسه: أمّه، سامر، منصور، التحقيق، الدم، البطاقة. كان جسده يصلي، بينما قلبه يركض في كل اتجاه.

وفي السجود، لم يجد دعاءً بليغًا.

قال فقط:

— يا رب، أنا لا أعرف ماذا أفعل.

ثم سكت.

كان قد اعتاد في رخائه أن يختار الكلمات التي تليق بالدعاء، أما في ضعفه فقد سقطت الزينة، ولم يبق إلا المعنى عاريًا. وأحس أن اعترافه بالعجز لم يكن نقصًا في يقينه، بل رجوعًا به إلى موضعه الصحيح: عبد لا يملك الخريطة، لكنه يعرف رب الطريق.

رفع رأسه، وأكمل صلاته.

بعد السلام، قال الرجل العجوز:

— أحسنت.

سأله يحيى:

— ماذا؟

— قلت الحقيقة.

تعجب.

— هل سمعتني؟

— لم أسمع كلماتك، لكنني رأيت كتفك حين سجدت. بعض الناس يسجدون وهم واقفون في داخلهم، وأنت هذه المرة وقعت.

نظر يحيى إليه طويلاً.

— ما اسمك؟

— عمران.

— ولماذا أنت هنا؟

ابتسم الشيخ ابتسامة بلا فرح.

— لأنني وثقت بولدي أكثر مما ينبغي.

لم يسأله يحيى، لكن عمران تابع:

— كتب دينا باسمي، ثم عجز عن سداذه وهرب. قالوا لي: أخبرنا أين هو ونطلقك. وأنا لا أعرف أين ذهب.

— وتركك؟

— ربما هرب من الدائنين، وربما هرب مني. الإنسان حين يعجز عن النظر في وجه من أحب، يختار أحياناً طريقاً طويلاً كيلا يعود.

قال يحيى:

— ألسنت غاضباً منه؟

— أنا غاضب، لكن الغضب لا يمحو الأبوة. القلب يا بُني ليس محكمة عادلة دائماً؛ قد يبرئ من نحب وهم مذنبون، ويدين أنفسنا عن جرائم غيرنا.

لامست العبارة موضعاً خفياً في يحيى.

قال:

— صديقي مفقود، وأشعر أنني دفعته إلى الخطر.

سأله عمران:

— هل أمرته أن يسرق؟

— لا.

— هل أردت به سوءاً؟

— لا.

— إذن لا تحمل نفسك ذنباً لمجرد أنك كنت حاضراً عند الطريق المؤدي إليه. للناس إراداتهم، وللشر أيديهم. الرحمة ليست أن تتهم نفسك بدلاً من الآخرين.

أسند يحيى ظهره إلى الجدار.

— لكنني لو لم أطلب مساعدته...

قاطعته عمران:

— ولو لم يولد لما تألم. أترى هذا عقلاً؟ كلمة لو باب واسع؛ يدخل منه الشيطان أحياناً مرتدياً ثياب المحاسبة.

سكتا.

ومن خلف الجدار جاء صوت رجل يبكي. كان يحاول خفض صوته، لكن البكاء في السجون لا يحتاج إلى ارتفاع كي يُسمع؛ فالأماكن الضيقة تضخم أحزان البشر.

وصل الخبر إلى خديجة قبل أن يجدوا طريقة لطيفة لإخبارها.

دخل خال يحيى الغرفة ووجهه مضطرب، فرفعت الأم رأسها وسألته:

— أين يحيى؟

— عنده بعض الإجراءات.

— أيّ إجراءات؟

— الشرطة تحقق في اختفاء زميله.

ظلت تحقق إليه.

— هل أوقفوه؟

لم يجب.

أغمضت عينيها، واستندت إلى الوسادة. شعرت مريم بالفرع، فأمسكت يدها.

قال عبد الكريم سريعاً:

— سأذهب إلى منصور. أعرف رجلاً يعرفه. يمكن أن نحل الأمر.

فتحت خديجة عينيها.

— لا تذهب تستعطي من ظلمه.

— ابنك في السجن!

— ولهذا لا أريد أن نضع المفتاح في يد سجّانه.

اقترَب منها غاضبًا:

— إلى متى ستتحدثون بهذه اللغة؟ الدنيا لها أهلها وطرائقها. كلمة من منصور قد تُخرج يحيى.

— والكلمة نفسها قد تدخله في ذلٍّ لا يخرج منه.

— وما فائدة الكرامة إذا نام خلف الحديد؟

أجابته بصوت ضعيف، لكنه نافذ:

— وما فائدة خروجه إذا ترك كرامته هناك؟

ضرب عبد الكريم جبهته بيده، ثم ابتعد نحو النافذة.

قالت مريم وهي تبكي:

— أخي بريء.

نظرت الأم إليها.

— أعلم.

— فلماذا يحدث له هذا؟

طال صمت خديجة. لم تكن من أولئك الذين يملكون جوابًا سريعًا لكل ألم، ولا كانت ترى في الدين كلمات تُلقى على الجراح كي تسكت. مسحت دموع ابنتها وقالت:

— لا أعرف لماذا وقع هذا بعينه. وليس كل ما يؤلمنا نعرف حكمته حين يقع. لكنني أعرف أن البراءة لا تعني أن الطريق سيكون بلا شوك، وأن الله لم يعد المؤمنين ألا يُظلموا؛ إنما وعدهم ألا يضيع عنده شيء.

— أخاف عليه.

— وأنا أخاف أكثر منك.

ارتجف صوتها، ثم أضافت:

— لكننا لا نعبد الله لأن الطريق آمن. نعبده لأنه الله، ولو مرّ الطريق من مواضع لا نفهمها.

في المساء، زار نادر يحيى.

جلسا يفصل بينهما حاجز زجاجي، ورفع كل منهما سماعة الهاتف.

قال نادر:

— النيابة قررت توقيفك سبعة أيام على ذمة التحقيق.

استقبل يحيى الخبر بصمت.

— وأمّي؟

— مستقرة، لكنني لم أخبرها بالتفاصيل كلها.

— عرفت؟

— نعم.

خفض يحيى رأسه.

قال نادر:

— اسمعني. حصلت على تسجيل من كاميرا المستشفى يثبت وقت وجودك هناك، وخروجك بعد رسالة سامر. هذا يفسر تحركك، لكنه لا يحسم ما حدث بعد ذلك.

— هل فُحصت السيارة الظاهرة في محطة الوقود؟

— اللوحة لوحتك، لكن هناك فرقًا صغيرًا في المصباح الخلفي. أرسلت خبيرًا لمقارنة الصورتين.

— وهشام؟

— ما زال مختفيًا.

— ومنصور؟

— يقول إنك وقَّعت العقد بمحض إرادتك، وإن المؤسسة فصلتك بعد اكتشاف تلاعبات مالية أجريتها بالتعاون مع سامر.

ابتسم يحيى بمرارة.

— لقد أكمل الرواية.

— نعم. وهي رواية جيدة الصنع.

— ماذا عن سجل الخادم؟

— الشركة أبلغت النيابة أن عطلاً تقنيًا أتلّف الأرشيف الاحتياطي ليلة اختفاء سامر.

ضحك يحيى لأول مرة، ضحكة قصيرة خالية من السرور.

— كل شيء يتعطل في الوقت المناسب.

قال نادر:

— ليس كل شيء. حصلت على شيء لم يحسبوا له حسابًا.

رفع يحيى عينيه.

أخرج نادر ورقة ووضعها أمام الزجاج.

— حين أرسلت لك المؤسسة رسالة الفصل، وصلت نسخة تلقائية إلى بريدك الشخصي؛ لأنك فعلت التحويل قبل أشهر. الرسالة تحمل توقيتًا، ومرفقًا يذكر أن الفصل سببه “رفض الموظف تنفيذ التوجيه الإداري المتعلق بتسوية عقد التوريد”.

اقترب يحيى من الزجاج.

— هذا يثبت أنني رفضت.

— يثبت أن خلافًا وقع حول العقد قبل أن يدّعوا اكتشاف التلاعب. لا يبرئك وحده، لكنه أول حجر صلب لدينا.

تنفس يحيى بعمق.

قال نادر:

— وهناك شيء آخر. اتصلت بي زوجة سامر.

— ماذا قالت؟

— سامر حي.

وقف يحيى دفعة واحدة.

— أين هو؟

— لا تعرف. وصلتها منه مكالمة قصيرة من رقم دولي. قال جملة واحدة:

“قولي ليحيى إن الأصل في المكان الذي خبأنا فيه أحلامنا أول مرة.”

انعقد حاجبا يحيى.

— ماذا يعني ذلك؟

— ظنت أنك تعرف.

جلس يحيى، وغاص في ذاكرته.

هو وسامر عرف أحدهما الآخر في الجامعة. تقاسما الغرفة الصغيرة، والكتب، والجوع، والأحاديث الطويلة عن المستقبل. كانا يجلسان بعد المحاضرات في موضع ما... يكتبان خططهما، ويتخيلان ما سيصيران إليه.

ثم لمع المكان في ذهنه.

— المكتبة القديمة.

— أي مكتبة؟

— مكتبة كلية التجارة. كانت مغلقة للترميم، وكنا ندخل من نافذة مكسورة في الخلف لنقرأ. أخفينا داخلها صندوقًا خشبيًا فيه رسائل كتبناها لأنفسنا يوم التخرج. اتفقنا أن نفتحه بعد عشرين عامًا.

سأل نادر:

— هل يستطيع سامر الوصول إليها؟

— المبنى مهجور منذ سنوات.

— إذن ربما وضع الأصل هناك.

قال يحيى بلهفة:

— اذهب الآن.

— لن أذهب وحدي، ولن أفتح شيئًا دون إجراء رسمي. إذا وُجد الدليل فعلاً، يجب أن يدخل القضية من باب لا يستطيعون الطعن فيه.

أوماً يحيى.

وقبل أن تنتهي الزيارة، وضع نادر يده على الزجاج وقال:

— أمّك أرسلت إليك شيئاً.

— ماذا؟

ابتسم.

— قالت: أخبروه أن البيت لم ينقص منه شيء.

لم يفهم يحيى أول الأمر.

ثم أدرك أنها لا تتحدث عن الأثاث ولا المال. كانت تقول له إن غيابه لم يهدم المعنى الذي قام عليه البيت، وإن صورته ما زالت في مكانها، وإن التهمة لم تدخل قلوبهم.

أغلق عينيه، وشعر بدموع ساخنة تتجمع خلفهما.

عاد إلى زنارته ليلاً. كان عمران نائماً، والرجل الآخر جالساً في العتمة. تمدد يحيى على الفراش الرقيق ونظر إلى النافذة العالية. لم يظهر منها إلا جزء صغير من السماء، مربع ضيق تتناثر فيه نجمتان.

فكر أن السجن يستطيع أن يقطع من الإنسان مساحة كبيرة من العالم، لكنه لا يستطيع أن يمنع السماء كلها. يترك دائماً قدراً صغيراً منها، يكفي لمن يعرف كيف ينظر.

همس:

— يا رب، احفظ سامر، واشفِ أمي، وأرني الحق حقًا، ولا تجعل رغبتني
في النجاة أحب إليّ من براءتي عندك.

ثم نام.

وفي الفجر، بينما كان يتوضأ من صنبور صغير، فُتح باب الزنزانة بعنف.

وقف الحارس وقال:

— يحيى السالمي، استعد.

سأله:

— إلى أين؟

قال الحارس:

— عثروا على رجل قرب الوادي، مصابًا بطلق ناري. يحمل أوراق سامر،
لكنه يقول إن اسمه هشام.

تجمد يحيى.

وأضاف الحارس:

— وقبل أن يفقد وعيه، اعترف بأنك أنت من أمره بالتخلص من سامر.

الفصل السادس

نصف اعتراف

كان هشام يرقد في غرفة العناية تحت حراسة مشددة.

أصابته الرصاصة في كتفه، وفقد كثيرًا من دمه، لكن حياته لم تكن في خطر. أما الكلمات التي نطق بها قبل أن يغيب عن الوعي، فقد خرجت إلى المدينة أسرع من التقرير الطبي؛ فالناس يتأثنون في تصديق البراءة، لكن التهمة تجد في آذانهم أبوابًا مفتوحة.

اقتادوا يحيى إلى غرفة التحقيق.

كان الرائد فؤاد واقفًا عند النافذة، وإلى جواره رجل لم يره من قبل، في الخمسين من عمره، أنيق الثياب، جامد الملامح. قدّمه بوصفه ممثلًا للنيابة، ثم طلب من الحارس أن يفك القيد عن يحيى.

جلس يحيى، ووضع يديه فوق الطاولة.

فتح فؤاد جهاز تسجيل صغيرًا.

— هل تعرف هشام القيسي؟

— كان زميلًا لي في المؤسسة، وتولى منصبى بعد فصلي.

— ما طبيعة علاقتك به؟

— محدودة.

— هل التقيته بعد مغادرتك المؤسسة؟

— لا.

— هل طلبت منه الحصول على تسجيلات كاميرات الطابق؟

— لم أتحدث إليه أصلاً. سامر هو من أخبرني أن هشام يستطيع الوصول إليها.

أخرج ممثل النيابة ورقة وقال:

— هشام يقرر في إفادته الأولية أنك هددته بفضح تورطه، ثم أجبرته على مساعدتك في اختطاف سامر لاسترداد ملفات مالية كان يحتفظ بها.

— هذا كذب.

— ويقول إن سامر طالبكما بالمال مقابل تسليم الملفات، فوقعت مشاجرة وأصيب، ثم أمرته أنت بنقله خارج المدينة.

سأله يحيى:

— وأين سامر؟

— لم يُعثر عليه.

— وكيف أُصيب هشام؟

قال فؤاد:

— يزعم أنك أطلقت عليه النار بعد أن رفض قتل سامر.

نظر يحيى إلى الضابط. لم يجد في وجهه اقتناعًا كاملاً، لكنه لم يجد رفضاً أيضاً.

قال:

— وهل وُجد السلاح؟

— ليس بعد.

— وهل يحمل هشام أثر دم سامر على ثيابه؟

لم يجبه أحد.

تابع يحيى:

— هل أصيب في الوادي نفسه؟ هل توجد آثار سيارة؟ أين كان طوال الأيام الماضية؟ ولماذا اختفى قبل أن يُذكر اسمه في التحقيق؟

قال ممثل النيابة ببرود:

— نحن من يطرح الأسئلة.

— وأنا المتهم الوحيد الذي يبدو مهتماً بإجاباتها.

ضرب الرجل القلم على الطاولة.

— احذر أسلوبك.

تدخل فؤاد:

— دعنا من هذا. هناك ما هو أهم.

أدار الحاسوب نحو يحيى. ظهرت صورة لمحادثة إلكترونية بين حساب يحمل اسم يحيى وهشام.

قرأ:

يحيى: سامر يحتفظ بنسخة. لا تدعه يصل إلى الشرطة.

هشام: ماذا تريد مني أن أفعل؟

يحيى: أحضره إلى المستودع، والباقي عليّ.

ظل يحيى يحدث في الشاشة.

قال فؤاد:

— هل الحساب لك؟

— الاسم والصورة لي، لكنني لم أكتب هذا.

— الحساب مرتبط برقم هاتفك.

— ورقم هاتفي كان مسجلاً في أنظمة المؤسسة.

قال ممثل النيابة:

— كل دليل يظهر تنسبه إلى التزوير.

رفع يحيى عينيه إليه.

— لأن من زور توقيعى لم يكن عاجزاً عن تزوير محادثة.

— ولماذا تبذل المؤسسة كل هذا الجهد لتوريط موظف صغير؟

سكن يحيى للحظة. لم تكن العبارة سؤالاً بريئاً؛ كانت مبنية لتصغيره حتى يبدو ادعائه ضخماً على مقاسه.

قال:

— لأن الموظف الصغير هو الجدار الذي يبنونه بين الجريمة وأصحابها الكبار. إذا سقط، بقي الذين وراءه واقفين.

سأل فؤاد:

— هل تملك دليلاً على أن المحادثة مزورة؟

— هاتفى الحقيقي كان عندكم وقت إرسال بعض الرسائل، أليس كذلك؟

تبادل فؤاد وممثل النيابة نظرة سريعة.

اقترب الضابط من الشاشة، وراجع التوقيت.

كانت إحدى الرسائل قد أرسلت بعد مصادرة هاتف يحيى بساعتين.

قال يحيى:

— إما أنني أرسل الرسائل من خلف باب مغلق وهاتفي في خزانةكم، وإما أن هشام لا يحسن الكذب حين يكون مستعجلاً.

أغلق فؤاد الحاسوب، ودون ملاحظة.

أما ممثل النيابة فقال:

— يمكن للحساب أن يكون مفتوحاً على جهاز آخر.

— افحصوا الأجهزة ومواقع الدخول، وستعرفون.

انتهى التحقيق، لكن يحيى لم يعد إلى زنارته مباشرة. بقي في الممر ينتظر الحارس. هناك مرّ به رجلان يحملان صندوقاً من المضبوطات، وخلفهما منصور الراوي.

كان يرتدي بذلته الداكنة، ويمشي إلى جانب محاميه. وحين رأى يحيى، أبطأ خطواته.

توقّف الرجلان متقابلين، وبينهما حارس ونصف مدينة من الظنون.

قال منصور:

— لم أتوقع أن تصل الأمور إلى هنا.

أجابه يحيى:

— الكذب لا يخبر من يطلقه أين سيتوقف.

ابتسم منصور ابتسامة واهنة.

— ما زال يمكن إنهاء كل شيء.

— بإقرارني أنني وقعت؟

— بإقرارك أنك اكتشفت مخالفات محدودة، وحاول سامر استغلالها لابتزاز المؤسسة. سنشهد أنك لم تشارك في الاختلاس، ونطلب الإفراج عنك.

— وماذا يحدث لسامر؟

— إن كان حيًّا، يتحمل نتيجة أفعاله.

— وهشام؟

— رجل خائف يقول أشياء كثيرة.

نظر يحيى إلى وجه منصور. للمرة الأولى لم يره قويًّا كما بدا خلف مكتبه الزجاجي. كان الشحوب يختبئ تحت عنايته بمظهره، وكانت عيناه تتحركان سريعًا نحو الأبواب. أدرك أن الفساد لا يمنح أصحابه الطمأنينة، مهما منحهم من سلطة؛ إنه يبيّن لهم قصورًا، ثم يجعل كل نافذة فيها احتمالًا لدخول الفضيحة.

قال يحيى:

— كنت تظن أنني أنا الخائف منك.

اقترب منصور قليلاً.

— كلنا خائفون يا يحيى. الفرق أن العاقل يعرف كيف يعقد صفقة مع خوفه.

— بل الفرق أن بعضنا يخدم خوفه حتى يصير سيده.

مال منصور نحوه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

— أمك نُقلت قبل ساعة إلى العناية المركزة.

تغير وجه يحيى.

— من أخبرك؟

— أعرف أشياء كثيرة. وقّع إقرارك، وتخرج إليها اليوم.

تحرك يحيى نحوه لولا أن الحارس أمسك ذراعه.

قال بصوت مرتجف:

— إذا اقترب أحد من أمي...

قاطعه منصور:

— لم تقترب منها. مرضها هو الذي يقترب. والوقت ليس في صالحك.

ثم مضى.

بقي يحيى واقفاً، وقلبه يضرب صدره كمن يريد الخروج منه. التفت إلى الحارس:

— أريد الاتصال بمحمي الآن.

قال الحارس:

— في الزنزانة أولاً.

— أمي في العناية!

— هذه التعليمات.

للمرة الأولى منذ دخوله شعر بالغضب يطغى على خوفه. أراد أن يدفع الرجل، أن يصرخ، أن يكسر شيئاً. لكنه أدرك أن أقل حركة ستُضاف إلى صورته التي يصنعونها: رجل عنيف، متوتر، قادر على التهديد.

أغمض عينيهِ، واستعاد أنفاسه.

قال الحارس، وقد رقّ صوته قليلاً:

— سأطلب لك اتصالاً حين نصل.

كان الخبر صحيحاً.

تدهورت حالة خديجة بعد اضطراب مفاجئ في نبض القلب، فنُقلت إلى العناية المركزة. وقف عبد الكريم خارج الغرفة، يمشي ذهاباً وإياباً، ويضرب الأرض بعصاه.

أما مريم فجلست على المقعد، تضم حقيبة أمّها إلى صدرها، كأنها تضم ما بقي منها.

وصل نادر في المساء، يحمل طلبًا عاجلاً للسماح ليحيى بزيارة أمّه تحت الحراسة.

قال عبد الكريم:

— أخرجوه؟

— لم يصدر القرار بعد.

— وماذا يفعل القانون إذا ماتت أمّه قبل أن يراها؟

خفض نادر صوته:

— أحاول.

اقترب منه عبد الكريم.

— وأنت تقول له اثبت، قاوم، لا تتنازل. هل ستعيد إليه أمّه إن ماتت؟

وقعت الكلمات على نادر ثقيلة، لكنه لم يدافع عن نفسه.

قالت مريم:

— ليس الأستاذ نادر من سجنه يا خالي.

التفت إليها عبد الكريم:

— كلّم تتحدّثون كأن الحياة قصة جميلة ينتصر فيها الصالح آخر الصفحة.
الحياة لا تنتظر صفحاتكم. أختي خلف الزجاج، وابنها خلف الحديد، ومنصور
في بيته!

خرج الطبيب، فانقطع الكلام.

قال إن حالتها حرجة، وإن الساعات المقبلة حاسمة.

جلس عبد الكريم ووضع رأسه بين كفيه. ثم قال بصوت مكسور:

— لو وقّع من البداية، لما كنا هنا.

نظرت إليه مريم. كانت أصغر من أن تحمل يقين أمّها كاملاً، لكنها حملت
منه ما يكفي لتقول:

— ربما كنا سنكون هنا أيضاً، لكننا كنا سنخجل من النظر إليها.

رفع رأسه نحوها، ولم يجد جواباً.

سمحوا ليحيى باتصال لا يتجاوز دقيقتين.

أمسك السماعة، واتصل بنادر.

— كيف حالها؟

صمت نادر لحظة، فعرف يحيى أن الخبر ليس مطمئناً.

— في العناية، لكنها تقاوم.

— أريد رؤيتها.

— قدمت طلبًا عاجلاً.

— منصور عرض أن يخرجني مقابل إقرار.

— لا توقع شيئاً.

— ماذا لو ماتت قبل أن أراها؟

جاء صوت نادر هادئاً، حزيناً:

— لن أختار عنك يا يحيى. لكن اسأل نفسك: هل خروجك حقيقي إذا أصبح

الإقرار قيداً يبقى في عنقك بقية عمرك؟

أطبق يحيى يده على السماعه.

— الكلام سهل من الخارج.

— نعم، سهل. وأنا لن أدعي أنني أشعر بما تشعر به. لكن منصور لم يخبرك

بمرضها رحمة؛ أخبرك لأنه يريد أن يجعل حبك لها أداة ضدك.

انتهى الوقت، وانتزع الحارس السماعه.

عاد يحيى إلى الزنزانة، وجلس في موضعه. نظر إليه عمران، فعرف أن

شيئاً وقع.

— أمك؟

أوماً يحيى.

— في العناية.

اقترّب الشيخ منه.

— أسأل الله أن يشفيها.

قال يحيى بصوت خافت:

— أستطيع أن أخرج إليها.

— كيف؟

— يريدون مني إقرارًا كاذبًا. سيبرئونني من السرقة، لكنني سأشهد على
سامر وأسقط أصل القضية.

سأله عمران:

— وماذا يقول قلبك؟

— قلبي يريد أمي.

— لم أسألك عمّن تريد. سألتك ماذا يقول قلبك عن الطريق إليها.

أخفى يحيى وجهه بين يديه.

— يقول إنني إذا خرجت بهذا الثمن، فلن أستطيع أن أنظر في عينيها.

قال عمران:

— إذن أنت تعرف جوابها.

رفع يحيى رأسه بعينين دامعتين.

— لكنها قد تموت.

سكت عمران طويلاً. ثم قال:

— نعم، قد تموت. ولن أقول لك إنها لن تموت لأنك اخترت الحق؛ فالحق ليس عقدًا نوقعه مع الله ليعطينا ما نشتهي. وقد تخرج فتجدها، وقد لا تخرج. لكن أمك لم تربك لتجعل بقاءها أعلى من بقائك أنت كما أرادتك.

انكسر شيء في صدر يحيى. لم يبك بصوت، لكن الدموع سالت على وجهه دون مقاومة.

جلس عمران قربه.

— ابك يا بُني. الثبات لا يعني أن يجف القلب. الأشجار الراسخة أيضاً ترتجف في الريح؛ الفرق أنها لا تقتلع نفسها هرباً منها.

قرب منتصف الليل، فُتح الباب.

دخل نادر ومعه الرائد فؤاد.

وقف يحيى مسرعاً.

قال فؤاد:

— صدر إذن بزيارتك لأمك ساعة واحدة تحت الحراسة.

لم يسأل كيف. ارتدى معطفه، وخرج بين الشرطيين.

كانت شوارع المدينة غارقة في صمت ثقيل. جلس في المقعد الخلفي، ينظر من النافذة إلى البيوت المغلقة. خلف كل نافذة حياة لا يعرف عنها شيئاً: أم تنتظر، طفل محموم، رجل يعدّ خسائره، امرأة تدعو في الظلام. أدرك أن العالم مملوء بآلام لا تصل إلى الأخبار؛ وأن الإنسان حين يتوجع يظن أن الكون قد ضاق بوجعه وحده، بينما تمضي قوافل كاملة من المنكسرين تحت الليل.

وصلوا إلى المستشفى.

سمحوا له بالدخول إلى العناية بعد أن ارتدى ثوباً واقياً. كانت أمّه موصولة بالأجهزة، وأنبوب رفيع يمدّها بالأكسجين. بدت أصغر من فراشها، وأضعف من أن تكون المرأة التي أقامت في قلبه كل ذلك البناء.

اقترب منها.

— أمي.

فتحت عينيها ببطء. احتاجت لحظات حتى تعرفه، ثم تحركت شفتاها بابتسامة صغيرة.

نظرت إلى الشرطي عند الباب، ثم إلى يديه.

— قيديوك؟

— وفكّوا القيد قبل أن أدخل.

رفعت يدها بصعوبة، فتحسّست معصمه كأنها تبحث عن أثر الحديد.

قال:

— عرضوا عليّ الخروج.

رأت بقية الكلام في وجهه.

— بماذا؟

— أن أقول إن سامر ابتز المؤسسة، وإنني وقعت العقد قبل أن أعرف فسادَه.

سكنت، وأغمضت عينيها من شدة التعب.

قال يحيى:

— خفت أن تموتي قبل أن أراك.

فتحت عينيها من جديد.

— وكنت سأموت حزينة لو رأيتك خارجاً من باب الكذب.

جلس قربها وأمسك يدها.

— أحتاج إليك.

— ومن قال إن حاجتك إليّ تنتهي إن ذهبت؟

اختنق صوته:

— لا تقولي هذا.

— اسمعني يا يحيى. كنت أظن وأنا شابة أن الأم تحمي أبناءها بجسدها؛
تحملهم، تطعمهم، وتسهر عليهم. ثم عرفت حين كبرت أن أجسادنا لا تدوم،
وأن أقصى ما تستطيع الأم أن تتركه في ولدها هو معنى يحميه حين تغيب.

كانت تتوقف بين الجمل لتلتقط أنفاسها.

— لا تجعلني أحبّ إليك من الحق الذي علّمتك أن تحبه. أنا أمّك، لكنني لست
ربّك، ولا رزقك، ولا أجلك. أحببني، وابقَ ابني... لكن ابقَ عبدًا لله أولاً.

انحنى يحيى وقبّل يدها، وبكى.

حركت أصابعها فوق رأسه.

— هل تذكر يوم مات أبوك؟

أومأ.

— كنت غاضبًا لأنه لم يترك لنا شيئًا.

ارتجفت ابتسامتها.

— ثم اكتشفنا أنه تركك.

رفع وجهه إليها.

قالت:

— لا أريد منك انتقامًا، ولا بطولة يتحدث بها الناس. أريد فقط ألا يخرج الظلم من قلبك ظلمًا آخر. إذا ظهرت براءتك، فلا تتكبر. وإذا تأخرت، فلا تيأس. وإذا قدرت عليهم، فلا تصر مثلهم.

أصدر الجهاز صوتًا متسارعًا، فدخلت الممرضة وطلبت منه الابتعاد.

قالت الأم بسرعة، كأنها تجمع ما بقي لها من قوة في كلمات قليلة:

— يحيى... البيت لم ينقص منه شيء.

ثم أغمضت عينيها.

أخرجته الممرضة، وأغلق الباب. تجمع الأطباء حول السرير، وتحولت الأجهزة إلى أصوات حادة متلاحقة.

وقف يحيى خلف الزجاج، يضع كفه عليه، فيما وقف الشرطي إلى جواره صامتًا.

بعد دقائق خرج الطبيب.

لم يقل شيئًا في البداية.

وكان الصمت وحده كافيًا.

ماتت خديجة قبيل الفجر.

ماتت دون أن تدفع المؤسسة ثمن علاجها، ودون أن ترى ابنها حرًا، ودون أن تمنح الرواية قارئها المعجزة التي كان ينتظرها.

لم تستيقظ في اللحظة الأخيرة. لم يتحسن قلبها لأن ابنها ثبت. لم يفتح باب السماء على الصورة التي يشتهيها البشر للأحداث.

رحلت كما يرحل كثير من الطيبين: بهدوء، وفي الوقت الذي يؤلم من يحبونهم.

أعادوا القيد إلى يدي يحيى عند باب المستشفى.

نظر إلى معصميه، ثم إلى الغرفة التي بقي فيها جسد أمّه. شعر أن الحديد أخف من الفراغ الذي انفتح في صدره.

وفي طريق العودة لم يبكِ. كان الحزن أكبر من الدموع، كبحر لم يجد بعد شاطئاً ينكسر عليه.

دخل الزنزانة، وجلس في موضعه.

نهض عمران حين رأى وجهه، وفهم. وضع يده على كتفه، ولم يقل: أحسن الله عزاءك، ولم يذكره بالصبر، ولم يحدثه عن الأجر.

جلس فقط إلى جواره.

وبعد وقت طويل، قال يحيى:

— ماتت بسببي.

أجابه عمران بهدوء:

— ماتت بأجلها.

— لو كنت خارجًا لكنت معها.

— كنت معها.

— ساعة واحدة.

— بعض الناس يجلسون إلى جوار أمهاتهم سنوات ولا يكونون معهن. أنت كنت معها بما صنعتُه فيك.

انفجر يحيى باكياً.

قال من بين دموعه:

— كنت أريد أن أنقذها.

— أنقذتك هي.

وظل عمران إلى جواره حتى نام من شدة الإنهاك.

في الصباح، استيقظ يحيى على صوت الحارس ينادي اسمه.

ظن أنهم سيأخذونه إلى التحقيق، لكنه وجد نادر ينتظره، وعيناه محمرّتان من السهر والحزن.

قال:

— رحمها الله.

خفض يحيى رأسه.

أكمل نادر:

— صدر قرار بالسماح لك بحضور الجنازة تحت الحراسة.

ثم اقترب منه وقال:

— ووجدنا الصندوق في المكتبة القديمة.

رفع يحيى عينيه.

— هل كانت الذاكرة هناك؟

— نعم. وفيها كل ما ذكره سامر، وأكثر.

— هل تكفي لإثبات براءتي؟

قال نادر:

— تكفي لهدم روايتهم كاملة. لكن هناك ملفًا صوتيًا أخيرًا سجله سامر قبل اختفائه.

— ماذا يقول؟

تردد نادر.

— لا يقوله سامر. التسجيل لمحادثة بين منصور وهشام. يتفقان فيها على تزوير توقيعك، واختلاق حادثة اختفاء سامر، ثم تسليمه لرجال سينقلونه خارج البلاد.

نهض يحيى.

— إذن سامر حي.

— كان حيًا وقت التسجيل.

— وأين هو الآن؟

— في نهاية المقطع، يذكر هشام اسم المزرعة التي احتجزوه فيها.

— هل تحركت الشرطة؟

نظر نادر إليه طويلاً، ثم قال:

— الرائد فؤاد في طريقه إليها الآن. لكن منصور اختفى، وهشام تراجع عن اعترافه، وهناك من سرّب خبر العثور على الذاكرة.

— ماذا يعني ذلك؟

— يعني أن من يحتجز سامر عرف أن الوقت انتهى.

وفي تلك اللحظة، كان رجال الشرطة يقتربون من المزرعة المهجورة.

وكان سامر في قبوها يسمع فوق رأسه وقع أقدام مسرعة، ثم صوت رجل
يقول:

— انقلوه الآن... وإن تعذر، لا تتركوه يتكلم.

الفصل السابع

جنازة تحت الحراسة

خرج يحيى من باب القسم ويده مقيدتان.

كانت الشمس قد ارتفعت قليلاً، لكن النهار بدا له بلا ضوء. جلس في المقعد الخلفي بين شرطيين، ومضت السيارة به نحو الحي الذي خرج منه قبل أيام يحمل صندوقه الورقي. لم يكن يدري أن الطريق القصير بين البيت والمؤسسة سيطول به حتى يعود إليه أسيراً ليدفن أمّه.

حين اقتربوا من الزقاق، رأى الرجال مصطفين أمام المنزل، والنساء يدخلن من الباب الجانبي، والأطفال يقفون عند النوافذ في صمت غير مألوف. عرف من وجوههم أن الخبر سبقه، وأن قصته لم تعد تخصه وحده؛ فقد أضاف الناس إليها وحذفوا منها حتى صارت نسخاً كثيرة، لكل مجلس روايته، ولكل قلب حكمه.

توقفت السيارة.

ترجل الحارس أولاً، ثم فتح له الباب. تجمعت العيون حول القيد في يديه. رأى في بعضها شفقة، وفي بعضها ريبة، وفي بعضها فضولاً لا يحسن التخفي.

اقترب نادر من الضابط المسؤول وقال:

— انزعوا القيد. الرجل جاء ليدفن أمّه، ولن يهرب من بين أهل الحي.

تردد الضابط، ثم أشار إلى الحارس.

حين انفتح الحديد عن معصميه، شعر يحيى أن الناس يتنفسون معه. غير أنه لم يشعر بالحرية؛ فالذي كانت روحه تريد أن تركض إليه صار مسجى لا يسمع خطواته.

دخل البيت.

كانت أمّه في الغرفة التي عاشت فيها أعوامها الأخيرة. أحاطت بها نساء الحي، وانسحبن حين رأيته. بقيت مريم قرب رأسها، عيناها متورمتين، ووجهها يحمل في ليلة واحدة من الكبر ما لم تحمله سنوات عمرها.

اقترب يحيى.

كان وجه أمّه مكشوفاً، هادئاً على نحو جليل. اختفت منه آثار الألم، وبقيت الملامح التي عرفها منذ طفولته: الجبهة الواسعة، والحاجبان الخفيفان، والشامة الصغيرة قرب الفم. بدا الموت كأنه لم يأخذها، بل أخرجها من تعبها ووضعها في سكون لا تقدر الدنيا على إفساده.

جلس عند رأسها.

مد يده، ثم توقف قبل أن يلمس جبينها. كان يخشى برودة الموت، لا لأنها ستزعه، بل لأنها ستخبره أن الدفء الذي عرفه قد انقطع حقاً.

لامسها.

وفي اللحظة نفسها عادت إليه حياته كلها دفعة واحدة: يدها وهي تقوده إلى المدرسة، صوتها توقظه للفجر، ثوبها القديم يوم تخرجه، وقوفها عند الباب ليلة دفن أبيه، والطعام الذي كانت تزعم أنها لا تشتهيهِ ليأكل هو نصيبها.

الأمهات لا يعشن في ذاكرتنا أحداثاً متفرقة؛ إنهن يصبحن المادة الخفية التي صُنعت منها أيامنا. وحين ترحل الأم لا يفقد الإنسان شخصاً فقط، بل يفقد اللغة الأولى التي خاطبته بها الحياة.

انحنى وقبّل جبينها.

وقال:

— سامحيني لأنني لم أستطع أن أحملك.

جاءه صوت مريم من خلفه:

— هي التي طلبت مني أن أقول لك شيئاً.

التفت إليها.

مسحت دموعها وقالت:

— حين نُقلت إلى العناية، قالت: إذا تأخرتُ عن الكلام مع يحيى، فقول لي لا يعتذر لي عن الطريق الذي دللته عليه.

أطرق يحيى.

تابعت:

— وقالت: أخبريه أنني لم أخسر دواءً، وإنما ربحت ولدًا لم يبعه خوفي عليه.

بكى هذه المرة كما يبكي الطفل؛ بلا حذر، وبلا محاولة لحفظ صورته أمام الناس. جلس على الأرض وأسند رأسه إلى طرف الفراش، وترك الدموع تخرج من المواضع التي أقام فيها الحزن ليلته الطويلة.

وضعت مريم يدها على كتفه.

كانت هي التي تحتاج إلى مواساته، لكنها بدت في تلك اللحظة امتدادًا لأُمّهما؛ كأن المرأة الراحلة وزعت ما بقي من قوتها بين ولديها قبل أن تمضي.

بعد الصلاة عليها، حمل يحيى النعش مع الرجال.

حاول الشرطي أن يبقى قريبًا منه، لكن الزحام فرّق بينهما. للحظات صار يحيى وسط الناس بلا قيد، يستطيع لو أراد أن ينعطف في أحد الأزقة ويختفي. غير أن فكرة الهرب لم تمر في نفسه؛ فقد كان يعرف أن البراءة لا تسترد نفسها بالفرار، وأنه إن هرب منح التهمة ساقين تمشي بهما.

سار خلف الجنازة.

كانت المدينة التي ركضت بالأمس وراء تجارتها تقف اليوم قليلًا لتفسح الطريق لمن انتهت تجارتها كلها. أصحاب الدكاكين يخرجون إلى الأبواب، والمارة يتمتمون بالدعاء، ورجل لا يعرفها يرفع يده إلى صدره احترامًا للموت الذي يساوي بين الغرباء.

همس رجل خلف يحيى:

— مسكينة، ماتت من القهر على ولدها.

أجابه آخر:

— الله أعلم بالحقيقة. يقولون إن القضية كبيرة.

وصلت الكلمات إلى يحيى. شعر بوخزها، لكنه لم يلتفت.

حتى في جنازة أمّه لم يتركه الناس بريئاً ولا مداناً؛ ظلوا ينسجون حوله أحكامهم، كأن الحكايات لا تحتل فراغاً حتى تظهر الحقيقة.

عند القبر، نزل يحيى مع خاله عبد الكريم ورجلين آخرين. تلقى جسد أمّه، ووضعها في موضعه الأخير. كانت المسافة بين ذراعيه والتراب قصيرة، لكنها بدت له أبعد رحلة حملها فيها.

حين وضع اللبنة وأهالوا التراب، أحس أن كل قبضة منه تسقط فوق شيء في داخله. لم يكن يدفن جسداً فقط، بل يدفن زمناً كاملاً كان يستطيع فيه أن يقول: سأعود إلى أمي.

وقف الناس للدعاء، ثم بدأوا يتفرقون.

بقي يحيى عند القبر.

اقترب منه خاله عبد الكريم. كان وجهه منطفئاً، وقد ذابت حدته القديمة في الحزن.

قال:

— سامحني.

نظر إليه يحيى.

— على ماذا؟

— كنت أظنك تعاند الحياة. والآن لا أعرف... ربما نحن الذين اعتدنا أن ننحني حتى حسبنا المستقيم متكبرًا.

لم يجب يحيى.

تابع خاله:

— ذهبت إلى منصور أمس.

رفع يحيى رأسه.

— ماذا فعلت؟

— طلبت منه إخراجك. قال إنه يستطيع، بشرط أن تقبل التسوية. كدت أرجوك أن تفعلها.

— لماذا لم تفعل؟

نظر عبد الكريم إلى القبر.

— أختي منعنتي. قالت لي: إذا أحببت يحيى، فلا تساعداهم على كسره.

سكت قليلاً، ثم أخرج هاتفه.

— سجلت حديثي مع منصور دون أن يعلم.

اتسعت عينا يحيى.

— ماذا قال؟

— قال إن توقعك لا يهم إذا اعترفت، وإنهم قادرون على صنع عشرة توقعات غيره. وقال إن سامر لن يعود ليتحدث.

اقترب نادر، الذي كان يقف على مسافة.

— هل التسجيل واضح؟

— واضح.

أخذ الهاتف بحذر.

— هذا مهم جدًا.

قال عبد الكريم:

— لم أفعلها شجاعة. كنت أريد شيئًا أساومه به ليخرج يحيى.

أجابه يحيى:

— ليست كل الطرق النقية تبدأ بنية كاملة. المهم إلى أين وصل بك الطريق.

نظر خاله إليه، ثم إلى القبر.

— أختك ستأتي إلى بيتي حتى تخرج.

— لا أريد أن أثقل عليك.

غضب عبد الكريم لأول مرة غضبًا أعاد إليه شيئًا من طبيعته:

— إذا تكلمت بهذه الطريقة، أعدتك إلى السجن بيدي! أختك ابنتي، وبيت أختي بيتي.

ابتسم يحيى رغم حزنه. كانت هذه أول نافذة دفء تُفتح منذ رحيل أمّه.

جاء الضابط وقال:

— انتهى الوقت.

نظر يحيى إلى القبر طويلًا، ثم انحنى وأخذ قبضة صغيرة من ترابه. ضمها في كفه، كأنه يريد أن يحمل من أمّه شيئًا لا تستطيع الحراسة مصادرته.

مد يديه للحارس.

قال الضابط:

— لا حاجة إلى القيد حتى السيارة.

هز يحيى رأسه.

لم تكن الرحمة كبيرة، لكنها في بعض الأوقات تكفي لتذكّر الإنسان أن القسوة لم تستول على العالم كله.

في الطريق إلى القسم، رن هاتف الضابط.

أجاب، ثم تغيّر وجهه.

— أين؟

أنصت قليلاً وقال:

— وهل وجدتموه؟

التفت يحيى إليه.

أغلق الضابط الهاتف وأمر السائق:

— إلى المستشفى المركزي، بسرعة.

سأله يحيى:

— ماذا حدث؟

تردد، ثم قال:

— تمت مداهمة المزرعة.

— وسامر؟

— وجدوه حيًّا.

أغمض يحيى عينيه، وانسابت من صدره زفرة طويلة كأنها كانت محبوسة منذ أيام.

— هل هو بخير؟

— مصاب، لكنه حي.

قال يحيى: الحمد لله.

لم يقلها بصوت المنتصر، بل بصوت الغريق حين تصل يده إلى شيء ثابت.

تابع الضابط:

— قُتل أحد الخاطفين، وألقي القبض على اثنين. أما منصور فلم يكن هناك.

— هل تحدث سامر؟

— قال كلمات قليلة قبل نقله إلى المستشفى.

— ماذا قال؟

نظر الضابط إلى يحيى:

— قال: “يحيى لم يفعل شيئاً... أنا الذي وضعتَه في الخطر.”

خفض يحيى رأسه.

كم غريباً أن يحمل كل واحد منهما ذنب الآخر في قلبه، بينما الجناة الحقيقيون

يوزعون الذنب بين الأبرياء كي ينجوا.

سمحوا ليحيى برؤية سامر من خلف زجاج غرفة العناية.

كان وجه صديقه مليئاً بالكدمات، وذراعه معلقة، وجسده موصولاً بالأجهزة.
فتحت عيناه للحظات، فرأى يحيى واقفاً في الخارج وإلى جواره الحارس.
حرّك شفّتيه.

لم يسمع يحيى، لكنه قرأ الكلمة: آسف.

وضع يحيى كفه على الزجاج، وهز رأسه بمعنى: لست وحدك.

لم يكن الغفران في تلك اللحظة قراراً أخلاقياً كاملاً؛ فما زال في داخله ألم من
صمت سامر، ومن الملفات التي شارك في تعديلها، ومن الخوف الذي تركه
يواجه المؤسسة وحده. لكنه أدرك أن الإنسان لا يُختصر في أسوأ لحظاته،
وأن سامر لم يكن ملاكاً ولا شيطاناً؛ كان رجلاً ضعيفاً حاول الخروج متأخراً،
فمزقت الأشواك جسده.

اقترب الرائد فؤاد من يحيى.

— إفادته الأولية تبرئك، والتسجيل الذي أحضره خالك يعزز الملف. سأطلب
الإفراج عنك فوراً.

سأله يحيى:

— وهشام؟

— اعترف أن منصور أمره بتوريطك. لكنه يزعم أن منصور نفسه كان ينفذ
تعليمات رئيس مجلس الإدارة.

— قلت لي إن منصور ليس الرأس.

— يبدو أن سامر كان محققًا.

— أين منصور؟

قال فؤاد:

— غادر منزله قبل المداهمة بنصف ساعة. نعتقد أن أحدهم سرب له التحرك.

نظر إليه نادر:

— أي إن داخل جهازكم من يساعده.

اشتد وجه فؤاد.

— أو داخل النيابة، أو المؤسسة، أو المستشفى. دائرة المعرفة كانت واسعة.

قال يحيى:

— والدائرة التي يهرب فيها المال أوسع.

قال الضابط:

— لهذا لن تنتهي القضية بخروجك.

عند المساء، صدر قرار الإفراج عن يحيى لعدم كفاية الأدلة على اتهامه، مع استمرار التحقيق.

خرج من بوابة القسم، فوجد مريم وخاله ونادر ينتظرونه. لم تكن هناك جموع، ولا كاميرات، ولا أصوات تهتف لبراءته. الذين تناقلوا خبر اتهامه في ساعات لم يصل إليهم خبر الإفراج بالسرعة نفسها؛ فالتهمة تركض، أما البراءة فتمشي متعبةً تحمل أوراقها.

عانقته مريم.

قالت وهي تبكي:

— تمنيت لو كانت أمي هنا.

نظر يحيى إلى السماء.

— كانت تعرف أنني سأخرج.

— كيف؟

— لأنها لم تكن تقيس خروجي من هذا الباب وحده.

عادوا إلى البيت.

حين فتح يحيى الباب، استقبله الصمت. رأى إناء العدس في موضعه، وشال أمّه على طرف الكرسي، وكأسها قرب النافذة. كانت الأشياء كلها موجودة، ومع ذلك بدا البيت كأنه نُقل إلى مكان آخر لا يعرفه.

اقترب من فراشها وجلس.

وجد تحت الوسادة ظرفًا صغيرًا عليه اسمه. ناولته مريم إياه.

— كتبتَه قبل العملية بأيام. قالت لي أعطيك إياه إذا غابت.

فتح الظرف.

كانت بداخله ورقة واحدة، كتبت عليها بخط متقطع:

يا يحيى،

قد يقال عنك إنك خسرت، فلا تتعب نفسك في شرح موازينك لكل أحد. من لم يؤمن بما تؤمن به لن يفهم لماذا تترك حاضرًا تراه من أجل آخرة لا يراها.

لكن احذر أن تحوّل ثباتك إلى كبر، أو أن ترى نفسك خيرًا ممن سقطوا. لولا ستر الله ولطفه، لكنت واحدًا منهم. وارحم الضعيف؛ فإن بعض الناس لا يبيعون مبادئهم حبًا في الثمن، بل عجزًا عن احتمال الجوع.

إذا ظهرت براءتك، فلا تجعل غايتك استعادة صورتك عند الناس. الصورة التي لا يعلمها الله عنك لا تنفعك، والصورة التي يعلمها لا يضرّك أن يجهلها الناس حيًّا.

وإذا قدرت على من ظلمك، فتذكّر أن العدل لا يحتاج إلى حقد كي يكون قويًّا.

أمك التي لم تخسر بك.

قرأ يحيى الرسالة مرة، ثم أعادها. وعند السطر الأخير انحنى حتى لامس جبينه الورقة.

مرّت ثلاثة أيام.

استعاد سامر وعيه، وقدم إفادة كاملة. اعترف بما شارك فيه من تزوير، وشرح كيف بدأت شبكة الاختلاس، وكيف اختير يحيى ليكون المتهم الأخير. وسلم المحققين تسجيلات تقود إلى أسماء نافذة لم تكن المؤسسة سوى واجهة صغيرة لها.

صدر أمر بالقبض على منصور ورئيس مجلس الإدارة وعدد من المسؤولين. وفي صباح اليوم الرابع، بينما كان يحيى في المقبرة عند قبر أمّه، اتصل به الرائد فؤاد.

— عثرنا على منصور.

— أين؟

— في منزل خارج المدينة. لكنه لم يكن وحده.

— مع من؟

سكت فؤاد لحظة.

— مع شخص لم نتوقعه: الدكتور هاشم، الطبيب الذي تكفل بعلاج أمّك.

شعر يحيى بصدمة باردة.

— هذا مستحيل.

— وجدنا في حوزة الطبيب سجلات طبية معدلة، وتحويلات مالية من المؤسسة. ويبدو أن تدهور حالة والدتك لم يكن طبيعيًا كما ظننا.

وقف يحيى أمام القبر، والهاتف ملتصق بأذنه، والتراب الذي ضم أمّه ساكن تحت قدميه.

قال بصوت لم يعرفه:

— ماذا تعني؟

أجابه فؤاد:

— أعني أن علينا فتح تحقيق جديد في وفاتها.

أغلق يحيى الهاتف ببطء.

كان قد قاوم الفقر، والتهمة، والسجن، وموت أمّه. لكن ما ارتفع الآن في داخله لم يكن خوفًا ولا حزنًا.

كان غضبًا أسود، هائلًا، يطالبه هذه المرة ألا يثبت على الحق فحسب، بل أن ينتقم.

الفصل الثامن

حين يرتدي الغضب ثياب العدالة

بقي يحيى واقفاً عند قبر أمّه، والهاتف ساكن في يده، بينما كانت الكلمات تتحرك في رأسه كجمر تدفعه الريح:

تدهور حالتها لم يكن طبيعياً.

نظر إلى التراب.

قبل دقائق كان يراه خاتمة مرض طويل، وموضعاً سلّم فيه ما يحب إلى قضاء الله. أما الآن فقد بدا له شاهداً صامتاً على جريمة محتملة. وفجأة تغيّر شكل الماضي كله: ارتباك الأجهزة في ليلتها الأخيرة، دخول الممرضين، معرفتهم المفاجئة بتفاصيل ملفها الطبي، حضور رجال المؤسسة، ثم ظهور الدكتور هاشم مع منصور.

حين تدخل الشبهة إلى الذاكرة، تعيد طلاء كل مشهد بلونها.

جلس قرب القبر، وغرس أصابعه في التراب.

قال بصوت مرتجف:

— إن كانوا قد مسّوك بسوء...

لم يكمل.

كانت العبارة التي صعدت في قلبه أثقل من أن يطلقها عند قبرها. لقد أوصته
ألا يخرج الظلم من قلبه ظلمًا آخر، لكنه شعر أن الوصايا تكون سهلة ما دام
الشر بعيدًا عن أعز ما نحب. أما حين يمد يده إلى الأم، فإن الإنسان لا يعود
يسمع إلا الدم.

جاءه صوت خاله عبد الكريم من خلفه:

— يحيى؟

التفت. كان خاله قد جاء لزيارته، يحمل إبريق ماء صغيرًا ليسقي الشجيرات
المحيطة بالقبر.

قرأ الخبر في وجهه قبل أن يسمعه.

— ماذا حدث؟

أخبره يحيى.

سقط الإبريق من يد عبد الكريم، وانسكب الماء على التراب.

— الطبيب؟

— وجدوه مع منصور.

تراجع الرجل خطوة، ثم قال:

— أنا من أدخل هاشم إلى غرفة أختي حين ساءت حالتها. أنا من اتصلت

به!

— لم تكن تعلم.

— لكنه صديق أبيك!

— لم نعرف الحقيقة بعد.

رفع عبد الكريم وجهه إليه بعينين تشتعلان:

— أي حقيقة تنتظر؟ رجل يأخذ مالا ممن هدّدها، ثم تموت بين يديه! أتريد ورقة مختومة كي تغضب؟

قال يحيى بحدّة:

— أنا غاضب.

— لا، أنت ما زلت تختبئ خلف كلمات أمك. قتلوها يا يحيى!

وقعت الكلمة في صدره كالفأس: قتلوها.

كان يمكنه احتمال الشبهة، لكن تحويلها إلى يقين أشعل داخله صورة كاملة: منصور يأمر، والطبيب يحقن، والأجهزة تصرخ، وأمّه تموت بينما هو خلف الزجاج.

أمسك بذراع خاله.

— لا تقلها قبل أن نعرف.

انتزع عبد الكريم ذراعه.

— وأنا أعرف أن الفقراء يموتون مرتين: مرة حين يقتلهم الأقوياء، ومرة حين يطلب القانون من أهلهم أن ينتظروا.

ثم انحنى، والتقط الإبريق الفارغ.

قال وهو يغادر:

— إن تركتهم يخرجون منها، فلن تكون ثابتًا على مبدئك؛ ستكون عاجزًا فقط.

بقيت العبارة بعد رحيله، تحفر في قلب يحيى موضعًا للشك في نفسه.

هل كان العفو الذي أوصته به أمّه فضيلة، أم ملاذًا يتوارى فيه الضعيف من المواجهة؟ وهل يمكن للإنسان أن يكون رحيماً بحق المجرم دون أن يكون قاسياً على الضحية؟

نهض واتجه إلى مركز التحقيق.

وجد نادر ينتظره عند المدخل.

قال:

— قبل أن تدخل، اسمعني. وجود الطبيب مع منصور دليل مهم، لكنه لا يثبت أنه قتل والدتك.

— والتحويلات؟

— تثبت علاقة مالية مشبوهة. لا نعرف سببها بعد.

— أتريدني أن أحسن الظن؟

— أريدك ألا تمنح الغضب سلطة إصدار الحكم قبل الأدلة.

اقترب منه يحيى.

— لو كانت أمك أنت؟

ثبت نادر نظره فيه.

— لكنت احتجت إليك لتمنعني مما أمنعك منه الآن.

أشاح يحيى بوجهه.

كان يعرف أن صديقه محق، لكنه كره صوابه في تلك اللحظة. فالحقيقة الباردة تبدو أحياناً خيانة أمام الدم الساخن.

دخلا.

كان الرائد فؤاد في غرفة جانبية، وعلى مكتبه ملف طبي وصور لحوالات مصرفية. أشار إليهما بالجلوس.

قال يحيى مباشرة:

— ماذا فعل الطبيب بأمي؟

— ما زلنا نحقق.

— لماذا كان مع منصور؟

— يقول إن منصور استدعاه لعلاج جرح في ساقه بعد هربه.

— ولماذا لم يبلغ عنه؟

— يقول إنه خاف.

ضحك يحيى بمرارة.

— كم جريمة أنجبها الخوف في هذه الحكاية؟

فتح فؤاد الملف.

— عثرنا على تحويلين ماليين من شركة تابعة للمؤسسة إلى حساب الدكتور

هاشم، قبل مرض والدتك بشهرين.

— إذن كان يعمل معهم.

— كان يعمل استشاريًا في مشروع المستشفى الذي تعرضت أمواله

للاختلاس.

— لماذا لم يخبرنا؟

— لأنه وقّع تقارير تفيد بأن تجهيزات طبية وصلت كاملة، بينما وصل أقل

من نصفها.

شعر يحيى أن صورة الطبيب في ذاكرته تتشقق: الرجل الذي ظهر في ساعة

العجز، وتكفل بالفحوص، وتحدث عن دين أبيه القديم.

قال:

— وهل عبث بعلاج أمي؟

أجاب فؤاد:

— السجلات الإلكترونية تعرضت لتعديل بعد وفاتها. حُذفت منها جرعة دواء أُعطيت لها قبل اضطراب القلب.

— أي دواء؟

— مادة قد تؤدي بجرعة زائدة إلى خلل خطير في النبض.

انقبض قلب يحيى.

— ومن أمر بها؟

— اسم الطبيب المناوب موجود، لكنه ينكر كتابتها، وتوقيعه الإلكتروني ربما استخدم دون علمه.

قال يحيى:

— مثل توقيعي.

— بالضبط.

سأله نادر:

— من دخل إلى النظام وقت تعديل السجل؟

— حساب الدكتور هاشم.

نهض يحيى.

— ومع ذلك تقولون لا تعرفون!

قال فؤاد بحزم:

— اجلس. حسابه استُخدم من جهاز في الإدارة المالية للمستشفى، بينما تظهر كاميرا المدخل أنه كان في قسم الأشعة في التوقيت نفسه.

توقف يحيى.

— إذن زُور دخوله أيضًا؟

— ربما. أو أعطى بياناته لشخص آخر. نحتاج إلى فحص مستقل للجثمان.

فهم يحيى ما يعنيه.

نظر إلى فؤاد دون كلام.

قال الضابط:

— سنحتاج إلى استخراج الجثمان بإذن النيابة وموافقة الأسرة.

تراجع يحيى في مقعده، كأن الكلمات دفعته.

بدت له الفكرة اعتداءً جديدًا على سكون أمّه. لقد وضعها بيديه في القبر،
وسوى التراب عليها، وظن أن الدنيا فقدت القدرة على إزعاجها. وها هي
القضية تلاحقها إلى موضعها الأخير.

قال:

— لا أريد أن يمسه أحد.

قال نادر:

— من حَقَّ أن ترفض، لكن من دون الفحص قد تبقى الحقيقة ناقصة.

— لقد تألمت بما يكفي.

أجابه فؤاد:

— الجثمان لا يتألم. الأحياء هم الذين سيتألمون من فتح القبر، لكنهم قد
يتألمون أكثر من بقاء السؤال مفتوحًا.

وضع يحيى يديه على وجهه.

قبل أيام كان يرجو أي دليل ينقذه من التهمة. أما الآن فقد صار الدليل طريقًا
يمر من جسد أمّه.

قال نادر برفق:

— لا تجب الآن. تشاور مع مريم وخالك.

خرج يحيى من المركز وقلبه مثقل بقرار لم يتخيل أن يُطلب منه يومًا.

في البيت، جلست مريم تستمع بصمت.

حين أنهى كلامه، شحب وجهها.

قالت:

— سيخرجونها من قبرها؟

— إذا وافقنا.

— وهل نحتاج إلى ذلك؟

— قد يكون الطريق الوحيد لنعرف كيف ماتت.

أمسكت مريم شال أمها، وضمته إلى صدرها.

— وماذا سيتغير إذا عرفنا؟ لن تعود.

— سيحاسب من فعلها.

— وإن لم نعرف، سيظل احتمال قتلها يأكلنا.

قال خالهما عبد الكريم:

— نوافق. لا نقاش.

نظرت إليه مريم.

— هذه أمي، ليست ملقاً.

— وهي أختي. ولن أترك قاتلها ينجو لأننا خفنا من فتح قبر.

التفتا إلى يحيى.

ظل صامتًا. كان يسمع في داخله صوتين: أحدهما يريد حماية حرمة الجسد، والآخر يريد حماية الحقيقة. وكلاهما يتحدث باسم الأم.

دخل غرفتها، وجلس في موضعها قرب النافذة. أخرج رسالتها وقرأها:

إذا قدرت على من ظلمك، فتذكّر أن العدل لا يحتاج إلى حقد كي يكون قويًا.

فهم فجأة أنها لم توصه بترك العدالة، بل بتنقيتها من الرغبة في التشفي. العفو ليس محوًا لحقوق الآخرين، والرحمة ليست ستارًا يُترك خلفه المجرمون. هناك فرق بين أن تطلب الحكم لأن الحق يحتاج إليه، وأن تطلبه كي تطعم غضبك.

عاد إليهما.

قال:

— نوافق على الفحص.

ثم نظر إلى خاله:

— لكننا لن نتهم أحدًا قبل النتيجة.

همّ عبد الكريم بالاعتراض، فأضاف يحيى:

— أمّي ليست حجة نستخدمها للكذب، حتى على من نكرهه.

سكت خاله.

تم استخراج الجثمان قبيل الفجر، بعيدًا عن أعين الناس.

وقف يحيى ومريم على مسافة، فيما تولى الفريق المختص مهمته. كان الهواء باردًا، والسماء مغطاة بسحب داكنة، ومصابيح المقبرة ترسم ظلال الرجال طويلة فوق التراب.

حين ارتفعت أول حفنة من القبر، أدارت مريم وجهها وبكت.

أما يحيى فثبت مكانه، لكنه شعر كأن المعاول تقع في صدره. لم ينظر إلى التفاصيل. بقي يردد في سرّه أن المقصود ليس انتهاك سكونها، بل الدفاع عن حقها وحقوق مرضى آخرين ربما مرّ بهم الطريق نفسه.

انتهى الأمر، وأُعيد الجثمان إلى موضعه.

اقترب يحيى من القبر بعد انصراف الفريق، وسوّى بيده جزءًا من التراب.

قال:

— سامحينا يا أمّي. حتى بعد رحيلك ما زلنا نطلب منك أن تحمينا بالحقيقة.

استغرقت النتائج يومين.

خلالهما انتشرت أخبار القضية. نشرت الصحف صورة يحيى القديمة تحت عناوين متناقضة: موظف نزيه يكشف شبكة فساد، ومحاسب متورط ينقلب على شركائه، وابن يطالب بالتحقيق في وفاة أمّه. كان الرجل نفسه يُبنى ويُهدم كل صباح، بحسب الجريدة التي يقرأها الناس.

جاءه صحفي يطلب لقاءً حصرياً.

قال:

— قصتك ستجعل منك رمزاً.

أجابه يحيى:

— لا أريد أن أكون رمزاً.

— الناس تحتاج إلى نماذج.

— وأنا أحتاج إلى أن أبقى إنساناً. الرموز التي تصنعها العناوين بسرعة، تكسرّها العناوين بسرعة أكبر.

— لكن الظهور سيحميك.

— أو يجعلني أحب صورتي الجديدة، فأبدأ بتمثيلها بدل أن أعيش حقيقتي.

غادر الصحفي خائباً، وكتب في اليوم التالي أن يحيى “يتعالى على الإعلام”. أدرك يحيى أن الناس لا يعاقبونك فقط حين تتكلم، بل قد يعاقبونك لأنك حرمتهم من الكلام الذي أرادوه.

في مساء اليوم الثاني، اتصل فؤاد.

اجتمعوا في مكتبه: يحيى، مريم، عبد الكريم، نادر، والطبيب الشرعي.

فتح الطبيب تقريره وقال:

— الوفاة نتجت عن اضطراب حاد في القلب، لكننا وجدنا أثرًا مرتفعًا من المادة التي ذكرت في السجل المحذوف.

أغمضت مريم عينيها.

سأل يحيى:

— هل قُتلت؟

قال الطبيب:

— لا أستطيع استخدام هذه الكلمة طبيًا دون معرفة القصد. الجرعة كانت أعلى من المقررة، وأسهمت بصورة مباشرة في الوفاة. قد تكون خطأ جسيمًا، وقد تكون متعمدة.

قال عبد الكريم:

— ومن أعطاها الحقنة؟

أجاب فؤاد:

— الممرضة المناوبة، وفق سجل صرف الدواء.

— أين هي؟

— اختفت صباح اليوم.

ضرب عبد الكريم الطاولة.

— كلهم يختفون!

قال فؤاد:

— عثرنا في خزانة على مبلغ كبير، وعلى هاتف ثانٍ يحوي رسائل من رقم غير مسجل.

عرض الرسائل. كانت التعليمات دقيقة: تغيير العبوة، حذف السجل، ثم مغادرة المدينة بعد انتهاء المناوبة.

سأل يحيى:

— من صاحب الرقم؟

تردد فؤاد.

— الهاتف مسجل باسم شركة صغيرة يملكها الدكتور هاشم.

وقف يحيى، وهذه المرة لم يستطع نادر منعه من الغضب.

— أين هو؟

— محتجز في الغرفة المجاورة.

— أريد أن أراه.

— لا يجوز.

— أريد أن أسأله سؤالاً واحداً.

رفض فؤاد أولاً، ثم سمح بمواجهة رسمية قصيرة بحضور الجميع.

أدخل الدكتور هاشم.

لم يعد يشبه الرجل الذي ظهر في ممر المستشفى كاستجابة لدعاء قديم. كان وجهه شاحباً، وثيابه مجعدة، ويداه ترتجفان.

نظر إلى يحيى، ثم خفض عينيه.

قال يحيى:

— أبي باع آلة عمله لتكمل دراستك.

أغلق الطبيب عينيه.

— أعرف.

— وحين مرضت أمي، ظننت أنك جئت تردّ دينه.

— جئت لذلك.

— ثم قتلتها؟

رفع هاشم رأسه مذعوراً.

— لم أقتلها!

— الشركة التي أرسلت الرسائل باسمك.

— نعم، لكنها ليست تحت إدارتي الفعلية. أسستها بطلب من منصور لتمرير عقود الاستشارات.

— أعطيتهم اسمك، وحسابك، وتوقيعك، ثم تريد أن تقنعني أن يدك بعيدة؟

قال الطبيب بصوت مكسور:

— وقّعت تقارير كاذبة. أخذت مالا. جئنت حين كان يجب أن أتكلم. لكنني لم أمر بقتلها.

اقترب يحيى منه.

— لماذا عدّلت سجلها بحسابك؟

— لأن بيانات دخولي كانت لدى مدير المستشفى. أعطيتها له سابقا لتسريع اعتماد التقارير.

— ومن كان يعرف أنها أمي؟

— منصور.

سأل فؤاد:

— هل طلب منك منصور التأثير في علاجها؟

— طلب مني تأخير تحويلها إلى مركز القلب حتى يقبل يحيى التسوية.

شهقت مريم.

أطبق يحيى قبضته.

تابع هاشم سريعاً:

— رفضت! ولهذا أدخلتها على مسؤوليتي. وحين عرف أنني ساعدتها، هدد بفضح التقارير التي وقعتها. اتصل بي ليلة وفاتها وقال إن الأمر انتهى وإن عليّ حذف ما يتعلق بالجرعة، لكنني لم أفعل.

— ولماذا وجدناك معه؟

— اتصل بي مصاباً وطلب العلاج. قال إن لديه تسجيلاً يثبت تورطي في وفاة خديجة، وأنه سينشره إن لم آت. ذهبت خوفاً.

ضحك عبد الكريم بسخرية:

— الخوف مرة أخرى!

نظر الطبيب إليه بوجه منهار.

— نعم، الخوف. بدأتُ بخطأ صغير كي أحافظ على منصبي، ثم قضيت عامين أحافظ على الخطأ بكل ما بقي مني.

قال يحيى:

— لو أنك تكلمت منذ البداية، لربما كانت أمي حيّة.

لم يجد الطبيب جواباً.

كان الصمت اعترافاً بنوع آخر من القتل؛ ليس القتل الذي تضغط فيه اليد على الحقنة، بل الذي تصنعه سلسلة طويلة من التنازلات، يظن كل صاحب حلقة فيها أن نصيبه صغير. منصور يأمر، والمدير يتيح الحساب، والطبيب يسلم بياناته، والممرضة تحقق، والموظف يحذف، ثم يموت إنسان لا يستطيع أحد أن يقول: أنا وحدي قتلته.

هنا رأى يحيى وجه الفساد كاملاً: ليس وحشاً واحداً يمكن ضربه فيموت، بل ضعفاً موزعاً بين أناس كثيرين، يسلم كل واحد منهم الجزء الذي تحت يده، حتى تكتمل الجريمة دون أن يشعر أحدهم أنه مجرم كامل.

سأل فؤاد الطبيب:

— من أمر الممرضة؟

رفع هاشم رأسه ببطء.

— مدير المستشفى، بأمر منصور.

— وهل لديك دليل؟

— تسجيل المكالمات التي هددني بها منصور. خبأته في عيادتي.

قال فؤاد:

— فتشنا عيادتك.

— ليس في الحاسوب. داخل جهاز تخطيط القلب القديم. نزعنا الغطاء الخلفي ووضعت المسجل فيه.

خرج فؤاد فوراً وأصدر تعليماته.

بقي يحيى أمام الطبيب.

كان الغضب يطلب منه أن يضربه، أن يهينه، أن يجعله يذوق شيئاً من العجز الذي ذاقه عند سرير أمّه. لكن وجه الرجل لم يكن وجه قاتل منتصر؛ كان وجه إنسان هدم نفسه حجراً حجراً، ثم جلس تحت أنقاضها.

قال هاشم:

— لن تطلب مني أن أسامحك.

رفع الطبيب عينيه.

تابع يحيى:

— ولن أقول إنك بريء. ربما لم تعطها الجرعة، لكن صمتك ساعد اليد التي أعطتها. ستشهد بكل شيء، وتحمل نصيبك.

— سأفعل.

— ليس من أجلي.

نظر يحيى إلى مريم.

— من أجل أمي، ومن أجل كل مريض صار في دفاترهم رقماً يمكن حذفه.

عُثر على التسجيل.

كان صوت منصور واضحًا وهو يأمر مدير المستشفى بتصعيد الضغط على يحيى، ثم يقول ببرود:

إذا لم يوقع، اجعلوا مرضها أسرع من عناده.

لم يكن أمرًا طبيًا صريحًا بالقتل، لكنه كان كافيًا لفتح الطريق إلى الرسائل والدفعات والحسابات. وخلال ساعات، أُلقي القبض على مدير المستشفى والمرضة قبل أن تغادر البلاد.

أما منصور، فحين وُوجه بالتسجيل، طلب لقاء يحيى.

رفض يحيى أولًا.

قال نادر:

— لست ملزمًا برؤيته.

لكن فؤاد أخبره أن منصور يريد الاعتراف بأسماء من فوقه مقابل أن يسمعه يحيى.

سأل يحيى:

— لماذا يشترط حضوري؟

قال فؤاد:

— يقول إن لديه شيئًا لا يقوله إلا لك.

دخل يحيى غرفة المقابلة.

كان منصور يجلس خلف الطاولة بثياب التوقيف. اختفت البذلة والساعة
اللامعة والمكتب المرتفع. بدا أصغر حجمًا، كما لو أن السلطة كانت جزءًا
من جسده، فلما نُزعت عنه انكمش.

جلس يحيى قبالة.

قال منصور:

— ماتت أمك بسببي.

لم يرد يحيى.

— لم أمر بقتلها مباشرة، لكنني أردت كسر إرادتك. قلت لهم اضغطوا عليك
من خلالها، وهم عرفوا ما أقصد أكثر مما ينبغي.

ظل يحيى ساكنًا، لكن يديه تحت الطاولة كانتا ترتجفان.

قال منصور:

— تستطيع أن تطلب إعدامي الآن.

أجابه:

— أنا لا أملك الحكم عليك.

— لكنك تريد موتي.

نظر يحيى إليه طويلاً.

— أردته.

رفع منصور حاجبيه.

— حين عرفت، تمنيت أن أراك تتألم كما تألمت هي. وتمنيت أن أخسر نفسي للحظة، فقط كي أخسر كل شيء.

— وما الذي منعك؟

— لم يمنعني ضعفك، ولا القانون، ولا هذه الجدران. منعني امرأة تحت التراب كانت أخشى أن أخون آخر ما تركته في.

خفض منصور رأسه.

قال:

— أحسدك.

شعر يحيى بالنفور من الكلمة.

— على ماذا؟

— على أن لديك ميتة ما زالت تمنعك من السقوط. أنا أُمي حيّة، ولم أزرها منذ أربع سنوات؛ لأنها كلما رأتني سألتني من أين أتيت بهذا المال.

ساد الصمت.

ثم أخرج منصور من جيبه ورقة مطوية، ووضعها على الطاولة.

— هذه أسماء أصحاب الشبكة، والحسابات التي تصل إليهم. رئيس المؤسسة لم يكن إلا وسيطاً. بينهم مسؤولون سيخرجونني إن بقي الملف ناقصاً.

لم يمد يحيى يده.

— أعطها للمحقق.

— سأفعل. لكنني أردتك أن تعرف شيئاً.

— ماذا؟

— حين عرضت عليك المنصب، لم أختزك لأنك ضعيف. اخترتك لأنك أنظف رجل في المؤسسة. كنت أحتاج إلى اسم يصدقه الناس إذا وُضع على العقد.

ابتسم يحيى بمرارة.

— حتى نزاھتي أردتم سرقتها.

— نعم.

رفع منصور عينيه إليه.

— وحين رفضت، كرهتك؛ لأنك ذكرّرتني بالرجل الذي كنت أستطيع أن أكونه.

نهض يحيى.

قال منصور:

— هل تسامحني؟

توقف عند الباب، لكنه لم يلتفت.

— المسامحة ليست كلمة أعطيك إياها لتنام الليلة. هناك أم ماتت، وصديق
كاد يُقتل، ومرضى سُرقت أموالهم. اعترف، وردّ الحقوق، وتحمل الحكم.
وبعد ذلك اترك ما بينك وبين الله.

— وأنت؟

— سأحاول ألا أجعل كراهيتك سجنًا آخر أدخله معك.

خرج.

في الممر، شعر أن الغضب ما زال موجودًا، لكنه لم يعد يقود خطاه. لقد عاد
إلى موضعه الصحيح: نارًا تنير وجه الظلم، لا نارًا تحرق صاحبها قبل أن
تصل إليه.

غير أن الورقة التي سلّمها منصور فتحت بابًا أكبر من القضية كلها.

ففي أعلى قائمة الأسماء كان اسم رجل يعرفه يحيى جيدًا؛ رجل وقف في
جنازة أمّه، وبكى عند قبرها، وتعهد أمام الناس أن يقتص من قاتليها.

كان الاسم: الرائد فؤاد.

الفصل التاسع

الرجل الذي كان يقف في الجهتين

قرأ يحيى الاسم مرة أخرى.

كان واضحًا، لا يشبه اسمًا آخر، ولا يترك للعين مساحة تتعلل بها:

الرائد فؤاد عبد الغني.

إلى جواره أرقام حوالات وتواريخ، ثم عبارة مقتضبة: الحماية الأمنية ومتابعة البلاغات.

رفع يحيى رأسه، فوجد فؤاد واقفًا في آخر الممر يتحدث إلى أحد الضباط. كان وجهه هو الوجه نفسه الذي قابله عند المستودع، وحفظ ظرف سامر، وقاد مداهمة المزرعة، ووقف في جنازة أمّه بصمت، ثم سعى في طلب الإفراج عنه.

كيف يمكن لرجل أن يقف في جهتين متقابلتين إلى هذا الحد؟

تذكر الذاكرة الفارغة، وتسريب موعد المداهمة، وهروب منصور قبل وصول الشرطة. كانت شواهد متناثرة، ثم جاء الاسم فجمعها في صورة واحدة.

أعاد الورقة إلى نادر.

قال المحامي بصوت منخفض:

— لا تُظهر أنك رأيتها.

— لماذا؟

— لأننا لا نعرف من في هذا المبنى يعمل معه.

— والورقة؟

— لدى منصور نسخة أخرى؟

سأل فؤاد ذلك من بعيد، كأنه شعر بتغيّر في ملامحهما. اقترب وقال:

— هل انتهيتما؟

سبق نادر إلى الإجابة:

— منصور يريد إضافة أقوال جديدة بحضور النيابة.

نظر فؤاد إلى يحيى.

— هل أنت بخير؟

ثبت يحيى عينيه فيه. أراد أن يقول: كنت أظنك آخر باب آمن. لكنه تذكر أن الثقة حين تنهار دفعة واحدة قد تجعل الإنسان يفضح ما يعرف قبل أن يحميه.

قال:

— مرهق فقط.

ربت فؤاد على كتفه.

— اذهب إلى البيت. القادم سيكون أصعب.

كانت العبارة تحتل الرحمة والتهديد معاً.

خرج يحيى ونادر دون أن يتحدثا حتى ركبا السيارة.

قال يحيى:

— إذا كان فؤاد معهم، فقد وصل كل ما سلّمناه إليه.

— ليس بالضرورة. قبضه على منصور ومداهمته المزرعة لا تخدم الشبكة.

— ربما بعد أن أدرك أنها تنهار أراد النجاة بنفسه.

— أو ربما اسمه وُضع في القائمة لتشويه التحقيق.

— مثلما وُضع اسمي على العقد.

أوماً نادر.

— لهذا لا يجوز أن نحكم بالقائمة وحدها.

نظر يحيى إليه بمرارة.

— كلما ظهر اسم جديد قلت لي: لا تحكم. متى يصبح الاحتياط خوفاً من

الحقيقة؟

— حين نتوقف عن البحث. ونحن لم نتوقف.

أخرج نادر هاتفًا قديمًا من حقيبته.

— صورت الورقة كاملة قبل أن نسلمها للنيابة. سنرسلها إلى جهة رقابية مركزية، لكن ليس من أرقامنا.

— وهل تثق بهم؟

ابتسم نادر دون فرح.

— لم يعد السؤال: بمن تثق؟ بل: كيف نوزع الحقيقة بحيث يعجز شخص واحد عن دفنها؟

ذهبوا إلى مكتب صغير يملكه صحفي متقاعد يدعى عارف الحكيمي. كان الرجل قد أمضى ثلاثين عامًا يلاحق قضايا المال العام، ثم ترك الصحافة بعد أن أغلقت صحيفته مرتين، واعتُقل أبناؤه مرة، وتعلم أن الحقيقة لا تُهزم دائمًا بالتكذيب؛ أحيانًا تُهزم بإغراقها في ضجيج لا ينتهي.

استمع إليهما، ثم قال:

— سنصنع ثلاث نسخ. واحدة إلى هيئة الرقابة، وواحدة إلى قاضٍ معروف بالنزاهة، وثالثة تُحفظ خارج المدينة. إذا تحرك أحد ضدكم، تُنشر الوثائق كاملة.

سأله يحيى:

— أليس هذا ابتزازًا؟

— الابتزاز أن تطلب لنفسك ثمنًا مقابل الصمت. أما أن تجعل الأذى سببًا
لكشف الحقيقة، فهذا نوع من الحماية.

أخذ عارف الصورة، ثم توقف عند اسم فؤاد.

— أعرف هذا الرجل.

نظر إليه يحيى.

— كيف؟

— جاءني قبل عام بملف عن المؤسسة نفسها، ثم اختفى ولم يعد.

— هل كان يحقق فيها؟

— قال إن شقيقه مات في حادث سيارة بعدما اكتشف تحويلات غير قانونية.
أراد نشر الملف، لكنه تراجع فجأة.

سأل نادر:

— هل طلب مالا؟

— لم يطلب. كان خائفًا على ابنته.

قال يحيى:

— اسمه في كشوفاتهم.

أجابه عارف:

— قد يكون باعهم الملف. وقد يكون أخذ المال ليبقى قريباً منهم. والفرق بين الأمرين لا يظهر في الحوالة، بل فيما فعله بعدها.

عاد الخوف إلى صورته المتكررة في الحكاية. سامر خاف على أطفاله، والطبيب خاف على منصبه، وخاله خاف على أخته، وفؤاد خاف على ابنته. لم يكن الخوف عذراً يبرئهم، لكنه كان النهر الخفي الذي حمل كثيراً من أخطائهم.

قال عارف:

— لا تواجهوه وحدكم. إن كان متورطاً، فسيدافع عن نفسه. وإن كان يعمل سرّاً، فقد تدفعونه إلى حركة تفسد ما بناه.

سأل يحيى:

— وكيف نعرف؟

— ندعه يعرف أن القائمة وصلت إلى غيره، ثم نراقب إلى أي جهة يركض. في تلك الليلة، زار يحيى سامر في المستشفى.

كان قد نُقل من العناية إلى غرفة عادية، لكن آثار التعذيب ظلت ظاهرة على وجهه ويديه. جلست زوجته قرب النافذة، وإلى جوارها طفلان ينظران إلى أبيهما بخوف. حين دخل يحيى، نهضت وخرجت بالأطفال لتتركهما وحدهما.

قال سامر:

— بلغني أنهم أفرجوا عنك.

— وبلغني أنك لم تتركني أموت وحدي في روايتهم.

أطرق سامر.

— تركتك وحدك قبل ذلك.

جلس يحيى قربہ.

— نعم.

رفع سامر عينيه، وقد فوجئ بصراحته.

قال يحيى:

— لن أكذب عليك كي تبدو المسامحة أجمل. صمتك آذاني، ومشاركتك ساعدتهم، ورسالتك إلى هشام جعلتني أشك فيك.

— كنت أساومه.

— أعرف.

— أردت تأمين سفر زوجتي والأولاد. ظننت أنني أستطيع أخذ المال منهم، ثم أسلم الدليل.

— وهل كنت ستفعل؟

سكت سامر.

قال بعد وقت:

— لا أعرف. في تلك الأيام لم أعد أعرف أي نسخة مني ستستيقظ في الصباح.

نظر يحيى إلى يديه المصابتين.

— لماذا وضعت الأصل في المكتبة؟

— لأنني خفت أن أموت وأنا ما زلت كاذبًا.

— وهل هذا كل شيء؟

ارتعش فم سامر بابتسامة مؤلمة.

— ولأنني تذكرت رسالتنا القديمة.

— أي رسالة؟

— ألم تفتح الصندوق؟

— أخذوا الذاكرة فقط.

قال سامر:

— كانت فيه رسالتان كتبناهما يوم التخرج. كتبت في رسالتك: “إذا صرت غنيًا وخسرت الرجل الذي أحلم أن أكونه، فليأت سامر ويصفعني.”

ابتسم يحيى رغماً عنه.

— وأنت ماذا كتبت؟

أشاح سامر بوجهه.

— كتبت: “لن أعمل يومًا في مكان أخجل أن يعرف أولادي ما أفعله فيه.”

سقط الصمت بينهما.

في الخارج كان ابنه الصغير يطل من زجاج الباب. نظر سامر إليه، ثم امتلأت عيناه بالدموع.

— حين احتجزوني، لم أخف الموت بقدر خوفي من أن يكبر ويعرف من أبيه آخر ما فعل، لا أفضل ما كان يستطيع فعله.

قال يحيى:

— سينظر إلى ما فعلته بعد أن استيقظت.

— وهل يكفي؟

— لا يمحو الماضي، لكنه يمنع الماضي من أن يصير قدرك كله.

تنفس سامر ببطء.

— سيحاكمونني.

— نعم.

— وربما أسجن.

— نعم.

— جنّت لتواسيني أم لتقرأ عليّ لائحة الاتهام؟

قال يحيى:

— جنّت لأقول إنني سأشهد بالحقيقة كلها: بما فعلت، وبما فعلته لإنقاذها. لن أجعلك بريئاً كذباً، ولن أسمح لهم أن يجعلوك الشرير الوحيد.

غطى سامر عينيه بيده.

— كنت أتمنى طريقاً أقصر إلى التوبة.

قال يحيى:

— الطرق القصيرة هي التي أوصلتنا إلى هنا.

ثم سأله عن فؤاد.

تغير وجه سامر.

— لماذا تسأل؟

أخبره عن القائمة.

ظل سامر صامتاً، ثم قال:

— فؤاد أخذ المال.

— هل أنت متأكد؟

— رأيت حوالة باسمه، وسمعت منصور يتحدث عنه.

— ماذا قال؟

— قال: “رجلنا في الشرطة صار عبثًا. يتأخر في التنفيذ ويسأل كثيرًا.”

— متى كان ذلك؟

— قبل ستة أشهر.

— وهل سرّب فؤاد مداهمة المزرعة؟

— لا أعرف. لكن ليلة اختطافي سمعت الخاطفين يقولون إن “الضابط”
طلب إبقائي حيًّا حتى يصل إلى النسخة.

قال يحيى:

— ربما أراد الدليل لنفسه.

— وربما أراد إنقاذك. في المزرعة، كان أحد الرجال يريد قتلي، لكن الآخر
تلقى اتصالًا ومنعه. قال له المتصل: “لا نزيد الدم. يكفي ما حدث للمرأة.”

سرت برودة في جسد يحيى.

— هل عرفت الصوت؟

— لم أسمعه بوضوح. لكن الرجل نادى المتصل: سعادة الرائد.

عاد يحيى إلى البيت بعد منتصف الليل.

وجد مريم نائمة قرب غرفة أمّهما، والمصباح الصغير مضاء. دخل الغرفة، وأخرج الشال من فوق الكرسي. بقي واقفاً يستنشق رائحته الخافتة، ثم جلس.

كان يستطيع أن ينظر إلى الجميع بوصفهم خونة: سامر شارك ثم تاب، هاشم أخذ المال ثم ساعد، فؤاد تسلم الحوالات ثم أنقذ، ومنصور قتل ثم اعترف. لكن الحقيقة الإنسانية لم تكن مستقيمة كالسيف؛ كانت مزيجاً من ضعف وخير، وخوف وطمع، وندم وتأخر.

وهنا كانت العدالة أصعب من الغضب.

فالغضب يريد أسماء واضحة يضعها في جهة الشر، ثم ينتهي. أما العدل فيضطر إلى وزن كل فعل وحده: لا يمحو خيراً بسبب شر، ولا يغفر شراً بسبب خير. إنه لا يختصر الإنسان، لكنه لا يسمح بتذره في الأعذار.

فتح مصحفه، فوقعت عينه على قوله تعالى:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ).

قرأها مراراً.

لم تقل الآية: لا تبغضوا الظلم. ولم تطلب من القلب أن يصير بارداً أمام الجريمة. إنما وضعت العدل حارساً على الكراهية؛ لأن الإنسان قد يبدأ مطالباً بحق ضحيته، ثم ينتهي شبيهاً بمن ظلمه إذا ترك الحقد يكتب الحكم.

أغلق المصحف.

قال في سرّه: يا رب، لا تجعلني أبرئ من أحب، ولا أحمل من أكره ما لم يفعل. أرني كل امرئ بحقيقة فعله، لا بصورة غضبي عنه.

في الصباح، تلقى نادر اتصالاً من الراحل فؤاد.

طلب لقاءً عاجلاً في مكان بعيد عن القسم.

قال نادر ليحيى:

— عرف أن القائمة خرجت.

— كيف؟

— هذا ما سنعرفه.

التقيا به في مسجد قديم عند أطراف المدينة، بعد صلاة الظهر. كان المكان شبه خالٍ، والضوء يدخل من النوافذ العالية في خطوط مائلة تحمل ذرات الغبار.

جلس فؤاد إلى سارية حجرية. لم يكن يرتدي زيه، ووضع مسدسه في كيس أمامهما.

قال:

— لا أعرف إن كنتما جئتما لتسمعاني أم لتسلماني.

أجابه نادر:

— ابدأ بالحقيقة، ثم نقرر.

أخرج فؤاد ملفًا رقيقًا.

— نعم، أخذت المال من المؤسسة.

بقي يحيى ينظر إليه.

تابع:

— قبل عامين اكتشف أخي، وكان مراجعًا حكوميًّا، تحويلات من مشروع المستشفى. سلّمني نسخة من الملف، ثم مات في حادث دهس. أغلق التحقيق باعتباره حادثًا عاديًّا.

— فاقتربت منهم؟

— عرضت عليهم أن أخفي النسخة مقابل المال. أردت أن يعتقدوا أنني اشتريت.

قال نادر:

— ولماذا لم تسلّم الأدلة إلى جهة رسمية؟

ضحك فؤاد بمرارة.

— سلّمت أول ملف، فوصل إلى منصور قبل أن يعود إليّ رقم البلاغ. عندها عرفت أن الدائرة أكبر من قسمي.

سأله يحيى:

— هل أخذت المال لنفسك؟

صمت فؤاد.

كان الصمت أطول من أن يكون بريئاً.

قال أخيراً:

— في البداية أبقيت المال دليلاً. ثم مرضت ابنتي، واحتاجت إلى عملية خارج البلاد. أخذت جزءاً منه.

قال نادر:

— أي إنك لم تعد متخفياً بالكامل.

— نعم. في اللحظة التي أنفقت منها، صار لهم حبل في عنقي.

— والذاكرة التي كانت في الظرف؟

— أنا الذي استبدلتها.

نهض يحيى غاضباً.

— بسببك بقيت في السجن!

— لو تركتها، لأخذها وكيل النيابة الموجود مع الشبكة. رأيت اسمه في محتوياتها حين فحصناها أولاً. استبدلتها بذاكرة فارغة، واحتفظت بالأصل.

قال نادر:

— لكن الأصل الآخر وُجد في المكتبة.

— لم أعرف أن لسامر نسختين.

قال يحيى:

— وتسريب المداهمة؟

خفض فؤاد رأسه.

— سربت موقعًا خاطئًا لأحد رجالهم، لكن مسؤولًا آخر أرسل الموقع الحقيقي. لذلك سبقونا بنصف ساعة. حين عرفت، عجلت المداهمة وأنقذنا سامر.

— وهل منعت قتله؟

— نعم.

اقترب يحيى منه.

— وماذا عن أمي؟ كنت تعرف أنهم يستخدمونها للضغط عليّ.

رفع فؤاد عينيه، وفيهما ألم صادق أو شبيه بالصدق.

— عرفت بعد وفاتها أن منصور تجاوز التهديد. لو علمت قبلها...

قاطعه يحيى:

— الجميع يقول: لو علمت، لو تكلمت، لو لم أخف. لكن أُمي ماتت في المسافة بين كل هذه الـ«لو».

أطرق فؤاد.

قال:

— معك حق.

فتح الملف ودفعه إليهما.

— هنا تسجيلات عامين، وكشوف الحسابات، وأسماء الضباط والقضاة والمسؤولين. كل ما جمعته.

سأل نادر:

— لماذا تسلّمه الآن؟

— لأن منصور تكلم، ولأنهم عرفوا أنني انقلبت عليهم. لن أعيش طويلاً خارج الحماية، ولن أستطيع وحدي أن أقرر أي جزء من الحقيقة يظهر.

قال يحيى:

— وماذا تريد منا؟

— أن تنشروه إذا قُتلت، وأن تشهدوا أنني سلمته طوعاً.

— وماذا عن المال الذي أخذته؟

تنفس فؤاد بعمق.

— سأعترف به، وأتحمل المحاكمة.

— وابنتك؟

— ستعرف أن أباهما أخطأ وهو يحاول إنقاذها، ثم أخطأ أكثر وهو يحاول ستر خطئه. ليتني أستطيع أن أترك لها صورة أنظف، لكنني لن أصنعها بالكذب.

نظر يحيى إلى الرجل أمامه. لم يعد قادرًا على وضعه في جهة واحدة. كان قد خان القانون وحماه، أخذ المال وجمع الدليل، أبطأ العدالة ثم أنقذ سامر. لكن تعقيد شخصه لا يلغي بساطة الواجب الآن: أن يقول الحقيقة ويتحمل نصيبه.

قال يحيى:

— سلم نفسك إلى جهة لا يملك رجال الشبكة السيطرة عليها.

— رتبت ذلك. جاءت قوة من العاصمة، وستصل بعد ساعة.

سأله نادر:

— لماذا اخترت المسجد؟

نظر فؤاد إلى المحراب.

— لأنني لم أدخله منذ أخذت أول دفعة. كنت كلما مررت من جواره أشعر
أن الباب يعرفني، وأنني أنا الذي لا أعرف كيف أدخل.

قال يحيى:

— الأبواب لا تخجل من العائدين.

رفع فؤاد عينيه إليه.

— حتى لو تأخروا؟

— التأخر يزيد الطريق ألمًا، لكنه لا يغلقه.

مد فؤاد يده إلى الكيس الذي يحوي مسدسه، ثم دفعه بعيدًا.

وفي اللحظة نفسها دوى صوت رصاصة.

تهشم زجاج النافذة العالية، واخترقت الرصاصة السارية فوق رأس فؤاد.
انبطح الرجال خلف الجدار، وتوالت رصاصات من الخارج.

صاح فؤاد:

— وجدونا!

أخرج نادر هاتفه، بينما زحف يحيى نحو الملف الذي تتناثر أوراقه.

قال فؤاد:

— اترك الأوراق!

لكن يحيى جمعها وأدخلها تحت ثوبه.

جاء صوت سيارة تندفع عند الباب، ثم وقع أقدام في الساحة.

أمسك فؤاد بسلاحه، وأشار إليهما نحو باب جانبي خلف المحراب.

— اخرجوا من هناك.

قال يحيى:

— وأنت؟

— سأؤخرهم.

— القوة في الطريق.

ابتسم فؤاد ابتسامة متعبة.

— ساعة كاملة تكفي لموت أشياء كثيرة.

دفعهما نحو الباب، ثم وقف خلف السارية وأطلق رصاصة تحذيرية.

خرج يحيى ونادر إلى ممر ضيق خلف المسجد، وركضا بين البيوت الطينية.
كان الملف ملاصقًا لصدر يحيى، والرصاص يضرب الجدران من خلفهما.

وصلا إلى آخر الممر، فظهرت أمامهما سيارة سوداء تسد الطريق. فُتح بابها
الخلفي، ونزل رجلان مسلحان.

توقفا.

همس نادر:

— لا طريق.

نظر يحيى خلفه؛ رجال آخرون يقتربون من جهة المسجد.

كان محاصرًا بين جهتين، يحمل ملفًا يمكن أن يسقط شبكة كاملة، ولا يملك سلاحًا ولا مهربًا.

اقترب منه الرجل الأول وقال:

— أعطنا الملف، ونتركك تذهب.

أحس يحيى بدقات قلبه تضرب الورق تحت ثوبه.

قال الرجل:

— أمك ماتت بسببه، وصديقك كاد يموت. كم شخصًا آخر تريد أن تخسره؟

للحظة رأى يحيى مريم، وخاله، ونادر الواقف إلى جواره. أدرك أن الثبات لا يكلف صاحبه وحده دائمًا، وأن القرار لم يعد بين سلامته ومبدئه، بل بين حياة من يحب وحقيقة قد تنقذ آلفًا لا يعرفهم.

مد يده ببطء نحو الملف.

وفي اللحظة التي ظن الرجل أنه سيسلمه، دوت صفارات سيارات قادمة من الطرف الآخر، وارتفعت مكبرات الصوت تأمر المسلحين بإلقاء أسلحتهم.

تراجع الرجلان نحو السيارة، وأطلق أحدهما النار.

اندفع نادر يسحب يحيى إلى الأرض.

اختلّطت الأصوات، وتكسّر الزجاج، وامتلاً الممر بالغبار. وبعد دقائق بدت أطول من سنوات، أحاطت القوة بالمكان، وألقي القبض على ثلاثة، وفرّ آخرون.

نهض يحيى.

كان الملف ما يزال تحت ثوبه.

ركض نحو المسجد.

وجد فؤاد جالساً إلى السارية، ويده تضغط على جرح في جانبه. اقترب منه يحيى، وجثا إلى جواره.

قال فؤاد بصوت ضعيف:

— الملف؟

— معي.

أغمض عينيه بارتياح.

— إذن لم أخسر كل شيء.

أمسك يحيى بيده.

— ستعيش.

ابتسم فؤاد.

— لا تعد الناس بما لا تملك.

كانت العبارة تشبه كلمات أمّه، فارتجف قلبه.

قال فؤاد:

— إذا متّ، لا تجعلهم يكتبون أنني بطل. اكتب أنني أخطأت، ثم حاولت ألا يكون خطئي الكلمة الأخيرة.

وصل المسعفون وحملوه.

وقف يحيى في ساحة المسجد، وثيابه ملطخة بدم رجل لم يعرف بعد أعدوّ كان أم حليفاً. ثم أدرك أن السؤال نفسه ناقص؛ فالإنسان قد يكون قد وقف في الجهتين، وأن خاتمته لا تمحو بدايته، كما أن بدايته لا تمنع إمكان عودته.

اقترب منه قائد القوة، وأخذ الملف بمحضر رسمي.

قال:

— بهذه الوثائق ستبدأ محاكمات واسعة.

نظر يحيى إلى الأوراق وهي تُختم واحدة بعد أخرى.

كان يعلم أن سقوط الأسماء لن يعيد أمّه، ولن يمحو جراح سامر، ولن يجعل المدينة نقية في صباح واحد. لكنه كان يعلم أيضاً أن الشر يكبر حين ييأس

الناس من جدوى مقاومته، وأن استرداد حق واحد قد لا يصلح العالم، لكنه يمنع العالم من إقناعنا بأن الظلم قدر لا يُرد.

وفي المستشفى، دخل فؤاد غرفة العمليات.

أما يحيى فعاد إلى البيت، فوجد عند الباب رسالة رسمية تخبره بأن المؤسسة ألغت قرار فصله، وأعادته إلى منصبه، وصرفت له تعويضًا كبيرًا.

قرأها، ثم طواها بهدوء.

وفي الصباح حملها إلى مقر المؤسسة، وصعد للمرة الأولى إلى المكتب الزجاجي الذي جلس فيه منصور.

كان الكرسي خاليًا، والمدينة تحت النافذة تبدو صغيرة كما كانت.

وضع قرار إعادته فوق الطاولة، وإلى جواره استقالته.

ثم كتب في آخرها:

لا أريد أن أرث المكتب الذي قاومته، ولا أن تتحول براءتي إلى طريق مختصر نحو ما رفضته أول مرة.

وقبل أن يغادر، دخل عليه رئيس مجلس الإدارة المؤقت وقال:

— فُكر جيدًا. الناس يرونك الآن بطلاً، والمؤسسة تحتاج إلى رجل مثلك.

أجابه يحيى:

— كانت تحتاج إلى رجل مثلي قبل أن تتكشف، لا بعد أن صار اسمي مفيداً لها.

— وماذا ستفعل؟

نظر يحيى إلى المدينة خلف الزجاج.

— سأبدأ من موضع لا أحتاج فيه إلى بيع صمتي ولا استثمار ثباتي.
خرج حاملاً صندوقه القديم.

هذه المرة لم يكن مطروداً، ولم يكن عائداً إلى منصب. كان يمشي بإرادته، وقد خسر أمّا وعملاً وطمأنينة قديمة، لكنه أنقذ في أعماقه شيئاً كان يمكن أن يضيع إلى الأبد.

ومع ذلك، لم تكن الحكاية قد انتهت.

ففي قاع الصندوق، تحت المصحف وصورة أبيه، وجد رسالة لم يضعها هناك.

فتحها.

كانت بخط منصور:

إذا قرأت هذه الرسالة، فاعلم أن الملف الذي ظهر ليس الملف الأخير. المال المسروق لم يكن غاية الشبكة، بل وسيلتها. مشروع المستشفى يخفي تحت مبناه شيئاً أخطر، وأملك لم تكن الضحية الأولى.

وفي أسفل الورقة عنوان واحد:

الجناح الذي لم يُفتتح قط.

الفصل العاشر

الجناح الذي لم يُفتح قط

قرأ يحيى رسالة منصور ثلاث مرات.

لم تكن طويلة، لكن كل كلمة فيها بدت كأنها تفتح بابًا خلف الباب الذي سبقه: مشروع المستشفى يخفي تحت مبناه شيئًا أخطر، وأَمَك لم تكن الضحية الأولى.

كان يظن أن القضية بلغت قاعها: أموال مسروقة، عقود مزورة، مرضى حُرِّموا من العلاج، وامرأة ماتت لأن أصحاب النفوذ أرادوا كسر ابنها. لكنه اكتشف أن للشر أقبية لا تظهر من الطوابق العليا، وأن الإنسان قد يقف طويلًا فوق الهاوية دون أن يعرف أن الأرض تحته فارغة. رفع الرسالة إلى الضوء.

لم تكن هناك علامة تدل على زمن كتابتها، ولا تفسير لكيف وصلت إلى صندوقه. ربما وضعها منصور قبل القبض عليه، وربما سلمها إلى أحد الموظفين، وربما لم يكتبها أصلًا، وكانت طُعمًا جديدًا يقوده إلى مكان أعده آخرون.

أخرج هاتفه واتصل بنادر.

جاءه صوت صديقه متعبًا:

— أَلَمْ تَتَعْلَمْ أَنَّ اللَّيْلَ لَمْ يَعدْ وَقْتًا مُناسِبًا لِلرَّسائِلِ الغامِضة؟

— وَجَدْتُ رِسالَةً مِنْ مَنْصُورٍ فِي صَنْدُوقِي.

سَكَتَ نادر.

— لَا تَلْمِسْهَا أَكْثَرَ.

— لَمْ يَبْقَ مِنْ بَصْمَاتِي مَوْضِعٌ فارِغٌ عَلَيْهَا.

— ماذا فِيها؟

قَرَأَها لَهُ.

قال نادر بَعْدَ صَمْتٍ:

— لَا تَذْهَبِ إِلى المَسْتَشْفَى.

— لَمْ أَقُلْ إِنَّني سَأَذْهَبُ.

— أَعْرِفْ هَذا النَوْعَ مِنْ صَمْتِكَ. أَنْتَ الآنَ تَرْتَدِي ثِيابَكَ.

نَظَرَ يَحْيَى إِلى مَعْطَفِهِ المَلْقَى فَوْقَ السَّرِيرِ.

— سَأَنْتَظِرُكَ.

— لَا تَتَحَرَّكْ حَتَّى أَصِلَ.

أَغْلَقَ الهاتِفَ.

كان البيت ساكنًا. مريم نامت في غرفة أمهما للمرة الأولى منذ وفاتها، كأنها تحرس ما تركته من رائحة وأشياء. دخل يحيى إليها، فوجدها نائمة قرب النافذة، والशल الرمادي فوق كتفها.

توقف عند الباب.

كم إنسانًا آخر يمكن أن يخسره إذا واصل الطريق؟ كان السؤال الذي وجهه إليه المسلح في ممر المسجد لا يزال حيًّا: كم شخصًا آخر تريد أن تخسره؟

لم تعد المسألة اختبارًا فرديًا يختار فيه الإنسان طهارة يده ثم يتحمل الثمن وحده. لقد جرّت القضية أمّه إلى الموت، وسامر إلى التعذيب، وفؤاد إلى غرفة العمليات، ومريم إلى بيت خلت غرفه من الأمان.

فهل يكون الاستمرار وفاءً للحق، أم عنادًا يجعل الآخرين يدفعون ثمن معركته؟

نهضت مريم فجأة، كأنها شعرت به.

— لماذا تقف عند الباب؟

— لم أرد إيقاظك.

نظرت إلى وجهه.

— حدث شيء.

لم يشأ أن يخبرها، لكنه تذكر أن الحماية التي تقوم على إخفاء الحقيقة قد تشبه، في صورتها الصغيرة، ما فعله جميع الذين ظنوا أنهم يعرفون مصلحة الآخرين أكثر منهم.

ناولها الرسالة.

قرأتها، ثم رفعت رأسها.

— ستذهب.

— لا أعرف.

— أنت تعرف، لكنك تخشى أن تقولها أمامي.

جلس على طرف الكرسي.

— أخشى عليك.

— وأنا أخشى عليك.

— لقد خسرت أمي.

— وأنا خسرتها أيضاً.

جاءت عبارتها هادئة، لكنها أوقفته عند حدّه. كان حزنه قد جعله يتصرف لحظة كأن الأم تخصه وحده، وكأن مريم مجرد شخص ينبغي حمايته من تنمة الحكاية.

قالت:

— لا تجعل موتها جدارًا تبني خلفه خوفك. هي لم تمت لأنك بحثت عن الحقيقة، بل لأنهم اختاروا أن يقتلوا كي يحموا الكذب.

— لكنني لو توقفت...

— هل ستعود؟

خفض رأسه.

قالت:

— إذن لا تجعل موتها بلا معنى. لكن لا تذهب وحدك، ولا تجعل الشجاعة اسمًا آخر للتهور.

ابتسم ابتسامة خفيفة.

— صرت تتحدثين مثلها.

لامست الشال فوق كتفها.

— ربما تركت لكل واحد منا بعض صوتها.

وصل نادر بعد نصف ساعة، وبرفقته عارف الحكيمي.

كان الصحفي المتقاعد يحمل حقيبة صغيرة وآلة تصوير قديمة. وضع الرسالة داخل غلاف شفاف، ثم فحصها بعدسة مكبرة.

قال:

— الخط يشبه خط منصور في الوثائق التي رأيتها، لكن هذا لا يكفي.

سأله يحيى:

— ماذا تعرف عن الجناح؟

— أعرف أن المستشفى افتتح قبل أربعة أعوام، وأن جناحه الشرقي بقي مغلقًا بحجة نقص التجهيزات.

— هل توجد تقارير عنه؟

— على الورق، هو مركز متكامل لغسيل الكلى والعلاج الكيميائي.

قال نادر:

— لكن أموال التجهيزات هي التي سُرقت.

هز عارف رأسه.

— جزء منها. كانت هناك شحنات دخلت البلاد باسم أجهزة طبية، ثم اختفت سجلاتها.

سأل يحيى:

— ماذا كانت تحمل؟

— لم أعرف يومها. صحفي شاب كان يتتبع الموضوع، ثم مات في حادث سير.

نظر يحيى إليه.

— مثل شقيق فؤاد.

— الحادث نفسه تقريبًا، وعلى الطريق نفسه.

أخرج عارف حاسوبه، وعرض صورة قديمة للمستشفى أثناء الإنشاء. ظهر المبنى الأبيض الكبير، وإلى جانبه جناح منخفض تحيط به أسوار عالية. كبر الصورة.

— انظروا إلى المدخل الخلفي. ليس مصممًا لاستقبال المرضى، بل لدخول الشاحنات.

قال نادر:

— ربما لتوريد الأجهزة.

أجاب عارف:

— ولماذا استمرت الشاحنات بالدخول بعد إعلان توقف المشروع بعامين؟

فتح صورًا أخرى التقطها عامل سابق في المستشفى. شاحنات بلا شعارات تدخل ليلاً، وحراس مسلحون يقفون قرب البوابة.

قال يحيى:

— نُسلّم الرسالة إلى فريق التحقيق.

قال عارف:

— يمكننا ذلك. لكن الرجل الذي يقود الفريق الجديد وصل اليوم فقط، ولا نعرف من وضعه في موقعه. الوثائق التي في يد الدولة أصبحت كثيرة، ومع ذلك لا يزال الجناح مغلقًا.

سأل نادر:

— ماذا تقترح؟

— لا ندخل. نراقب المكان، ونجمع ما يكفي للحصول على إذن تفتيش لا يستطيع أحد تعطيله.

نظر يحيى إليه.

— قلت: لا ندخل، وأنت تحمل آلة تصوير.

ابتسم عارف.

— تركت المهنة، لكن المهنة لم تتركني.

قبل الفجر بقليل، أوقفوا السيارة فوق مرتفع يطل على الجناح الشرقي.

كان المستشفى الرئيسي مضاءً، تتردد في ممراته حركة الممرضين وعربات المرضى. أما الجناح المغلق فغرق في ظلمة كاملة، إلا من مصباح أصفر فوق بابه الخلفي.

بدت نوافذه سوداء، وقد تراكم الغبار فوق ألواح الخرجية. وعلى السور لافتة باهتة تقول:

مشروع مركز الأمل لعلاج الأورام والفشل الكلوي.

قرأ يحيى الاسم وشعر بمرارة.

كم من الكلمات النبيلة تُعلّق فوق أبواب الشر لتمنحه هيئة مقبولة: الأمل، الرحمة، التنمية، الخدمة. لم يكن الفساد يسرق الأموال فقط، بل كان يسرق اللغة أيضاً، ويجعل الكلمات الجميلة واجهات لأفعال تناقضها.

مرت ساعة دون حركة.

قال نادر:

— ربما لم يعد المكان مستخدماً.

أجابه عارف:

— الغبار الظاهر لا يعني أن الداخل مهجور. المهربون يحبون الأبواب التي تبدو منسية.

عند الرابعة وعشر دقائق، انطفأ المصباح الخلفي.

ثم فُتحت البوابة.

دخلت شاحنة صغيرة بلا لوحة أمامية، وتبعها سيارة إسعاف لا تحمل اسم أي مستشفى. التقط عارف صورًا متتابعة.

نزل رجلان من الشاحنة، وفتحوا الباب الخلفي. أخرجوا صناديق معدنية طويلة. أما سيارة الإسعاف، فأنزل منها أربعة رجال نقالة مغطاة بملاءة بيضاء.

قال يحيى:

— أهنأك مريض؟

رفع عارف المنظار.

— لا أرى وجهًا.

دخلت النقالة، وأغلقت البوابة.

قال نادر:

— حصلنا على ما يكفي للتحقيق، نغادر الآن.

لكن يحيى ظل يحدق في المبنى.

جاء من داخله صوت خافت. لم يكن واضحًا في البداية، ثم حملته الريح عبر المسافة.

صرخة.

قصيرة، حادة، بشرية.

نظر الثلاثة بعضهم إلى بعض.

قال عارف:

— ربما إجراء طبي.

أجابه يحيى:

— في جناح غير مفتتح، وفي الرابعة فجرًا؟

أخرج نادر هاتفه.

— سأتصل بفريق التحقيق.

لكن شبكة الاتصال اختفت فجأة. نظروا إلى هواتفهم؛ لا إشارة.

قال عارف:

— لديهم جهاز تشويش.

وفي اللحظة نفسها أضيئت مصابيح سيارة خلفهم.

التفتوا.

كانت مركبة دفع رباعي قد توقفت على الطريق، ونزل منها رجالان.

قال نادر:

— رأنا أحدهم.

أدار عارف المحرك، لكن السيارة لم تستجب. حاول ثانية. صدر صوت ضعيف ثم سكن.

فتح الرجلان مصباحين قويين، وسارا نحوهم.

قال عارف:

— انزلوا من الجهة الأخرى. هناك ممر بين الصخور يصل إلى الحي الخفي.

خرجوا من السيارة، وانحدروا في الظلام. كان الطريق وعراً، والحصى ينزلق تحت أقدامهم. سمعوا الرجال خلفهم ينادونهم بالتوقف.

تفرقوا عند شجرة كبيرة كما اتفقوا سريعاً؛ اتجه عارف نحو الطريق العام حاملاً بطاقة الذاكرة، بينما مضى يحيى ونادر باتجاه البيوت.

انطلقت رصاصة في الهواء.

قال نادر وهو يلهث:

— منذ عرفتك، لم يعد عندي اجتماع ينتهي بكوب شاي!

رغم الخوف، ابتسم يحيى.

— قلت لي ألا أذهب وحدي.

— كنت أقصد أن نعقل التهور، لا أن نتقاسمه!

وصلا إلى سور طيني، وتسلقاه. هبط نادر أولاً، ثم مد يده إلى يحيى. وقبل أن يقفزا إلى الجهة الأخرى، أضاء مصباح وجه يحيى.

قال صوت من الخلف:

— توقف، وإلا أطلقت النار.

ثبت يحيى مكانه.

كان نادر في الجهة الأخرى من السور، لا يراه الرجل. همس له يحيى:

— اذهب.

قال نادر:

— لن أتركك.

— بطاقة الذاكرة مع عارف. أصل إليه.

اقترب الرجل، وفوهة سلاحه موجهة إلى ظهر يحيى.

— ارفع يديك.

رفع يحيى يديه ببطء.

قال لنادر بصوت أعلى:

— أخبر مريم أنني لم أختار هذا وحدي.

فهم نادر أنه لا يحدثه عن اللحظة فقط، بل عن الطريق كله. تراجع في الظلام، ثم ركض.

أمسك الرجل بيحيى، وقيّد يديه برباط بلاستيكي، ثم دفعه نحو السيارة. كان الرجل الآخر قد عاد من جهة المرتفع.

— هرب الاثنان.

— لا يهم. هذا يكفي.

وضعوا غطاءً أسود فوق رأس يحيى، وأجلسوه في المقعد الخلفي. تحركت السيارة دقائق قليلة، ثم توقفت. أنزلوه واقتادوه عبر باب حديدي.

عرف من الرائحة أنه داخل مستشفى: مطهرات، أدوية، ورطوبة أجهزة التكييف. لكن تحتها كانت هناك رائحة أخرى، معدنية ثقيلة، تشبه الدم حين يبقى طويلاً في مكان مغلق.

نزعوا الغطاء.

كان في ممر تحت الأرض، جدرانه بيضاء بلا نوافذ. أبواب كثيرة تمتد على الجانبين، وكل باب يحمل رقمًا بدل الاسم.

وقف أمامه رجل نحيل يرتدي معطفاً طبياً. لم يبدُ مذعوراً من وصول غريب، بل منزعاً كما ينزعج الموظف من تأخر معاملة.

قال:

— فتشوه.

أخرجوا هاتف يحيى، والرسالة، ومصحفه الصغير.

تأمل الطبيب الرسالة.

— منصور لم يتعلم أن الصمت أكثر أماناً من الندم.

سأله يحيى:

— ماذا يوجد هنا؟

ابتسم الرجل.

— كنتَ تستطيع أن تعود إلى بيتك بطلاً، لكن بعض الناس لا يعرفون متى يتوقفون عن إنقاذ العالم.

— لم آتِ لإنقاذ العالم.

— فلماذا أتيت؟

— لأنني سمعت إنساناً يصرخ.

اختفت الابتسامة قليلاً.

أشار الطبيب إلى أحد الأبواب.

— ضعوه في الغرفة السابعة حتى نقرر.

فتحوا الباب ودفعوه إلى الداخل.

كانت الغرفة باردة، وفي وسطها سرير معدني. وعلى الجدار المقابل أسماء محفورة بأظافر أو أدوات حادة؛ عشرات الأسماء وتواريخ متباعدة.

اقترب يحيى منها.

بعضها يعود إلى ثلاث سنوات، وبعضها إلى أشهر، وبعضها بلا تاريخ. وتحت الأسماء عبارة واحدة كُتبت بحروف مرتجفة:

إذا خرج أحد من هنا، فليخبرهم أننا لم نكن أرقامًا.

سمع أنينًا خلف الجدار.

طرق عليه.

— هل يسمعي أحد؟

انقطع الأنين لحظة.

ثم جاءه صوت امرأة ضعيف:

— من أنت؟

— اسمي يحيى.

سكتت المرأة، ثم قالت:

— هل أرسلوك للفحص أم للأخذ؟

— لا أفهم.

— كلنا لم نكن نفهم في البداية.

اقترب من الجدار.

— ما هذا المكان؟

قالت:

— يسمونه مركز الأبحاث. يجلبون المرضى الذين لا يسأل عنهم أحد، ويجربون عليهم أدوية لم تُعتمد. وإذا ماتوا، كتبوا في السجلات أن المرض سبقهم.

أطبق يحيى عينيه.

المال المسروق لم يكن الغاية. كان الجناح يمول تجارب غير قانونية لصالح شركات خارجية، تُختار لها أجساد الفقراء لأن غيابهم لا يصنع ضجيجًا.

سألها:

— منذ متى أنت هنا؟

— لا أعرف. جئت إلى المستشفى لعلاج الكلى، فقالوا إن هناك برنامجًا مجانيًا. أخذوا توقيعي على أوراق لم أقرأها.

— ما اسمك؟

— سعاد.

— سأخرجك من هنا.

ضحكت ضحكة واهنة.

— كل رجل جديد يقول ذلك.

— وأنا لم أدخل مريضاً.

ساد الصمت، ثم اقترب صوتها من الجدار.

— إذن دخلت أحرق.

قال يحيى:

— يبدو ذلك.

— وهل يعرف أحد مكانك؟

فكر في عارف ونادر، ثم قال:

— نعم.

— إذن قد لا تكون أحرق كاملاً.

سمعا خطوات في الممر، فابتعدا عن الجدار.

فُتح الباب، ودخل الطبيب ومعه رجلان. كان يحمل ملفاً أزرق.

ذلك اللون نفسه الذي حمل قرار ترقيته في مكتب منصور.

وضعه على السرير.

— لديك خياران يا يحيى: توقّع أنك دخلت الجناح بقصد ابتزاز إدارته وسرقة ملفات المرضى، ثم نخرجك الليلة؛ أو تتحول إلى واحد من الأسماء على هذا الجدار.

نظر يحيى إلى الملف.

بدأت الحكاية كأنها عادت إلى بدايتها: ورقة، توقيع، وباب نجاه يُفتح من الجهة الخطأ.

قال الطبيب:

— هذه المرة لا توجد أمّ تنتظرك. فلماذا تصر على الخسارة؟

نظر يحيى إلى الأسماء المحفورة، ثم إلى الجدار الذي تقبع خلفه سعاد.

وأدرك أن أمّه، وإن لم تعد تنتظره في البيت، قد تركت فيه ما يزال ينتظر جوابه.

رفع عينيه وقال:

— لأن موتها لم يجعل الباطل أخفّ عليّ، بل جعله أثقل.

أغلق الطبيب الملف.

— سنرى كم يصمد اليقين حين يبدأ الجسد بالدفع.

وخرج، تاركًا الباب مفتوحًا لرجلين يحمل أحدهما حقنة، والآخر أشرطة لتثبيت اليدين.

الفصل الحادي عشر

مرضى بلا أسماء

لم يخف يحيى من الحقنة بقدر ما خاف من الغياب.

كان الجسد مستعداً للألم على طريقتة الفطرية؛ تشدّدت عضلاته، وتسارعت أنفاسه، وانكمش قلبه كما لو أنه يبحث عن موضع صغير يختبئ فيه. أما عقله فكان يقاوم فكرة أن يغيب عن الوعي، وأن يستيقظ فلا يعرف ماذا فعلوا به، أو ألا يستيقظ أصلاً فيصبح اسمًا جديدًا يُحفر على الجدار.

أمسك الرجلان بذراعيه.

لم يقاومهما بعنف. كان يعرف أن جسده أضعف من أن يهزمهما، وأن أي حركة طائشة ستمنحهما ذريعة لزيادة ما يريدان فعله. قال للطبيب:

— إذا قتلتموني، فستعرف الشرطة أنني دخلت إلى هنا.

أجاب الطبيب وهو يجهز المحقن:

— لن تموت هنا. سنُعثر عليك في سيارتك وقد تناولت جرعة زائدة من مهدئ، بعد أن تركت رسالة تقول إن وفاة أمك كسرتك.

— وسيصدق الناس؟

ابتسم الطبيب.

— الناس لا يحتاجون إلى قصة صحيحة، بل إلى قصة تشبه ما يتوقعونه.
رجل خرج من السجن، فقد أمّه، طاردته الأوهام، ثم انهار. رواية إنسانية
مؤثرة.

أدرك يحيى أن أخطر الكذب ليس ما يبدو غريبًا، بل ما يُبنى من أجزاء
حقيقية: سجنه، حزنه، فقدته، اضطرابه. كانوا سيجمعون آلامه الصادقة، ثم
يصنعون منها خاتمة كاذبة.

اقتربت الإبرة من ذراعه.

قال يحيى:

— أنتم لا تقتلون الناس وحدهم؛ تسرقون قصصهم بعد موتهم.

توقفت يد الطبيب لحظة، ثم قال:

— القصص يكتبها من يبقى حيًا.

وجاء صوت من خلف الباب:

— ليس دائمًا.

التفت الجميع.

كان أحد الحراس يقف في الممر، يوجه سلاحه إلى الرجلين.

قال الطبيب بحدة:

— ماذا تفعل يا ماهر؟

— ابتعد عنه.

ظل الطبيب ممسكًا بالحقنة.

— أنزل السلاح. أنت لا تعرف ماذا سيحدث لعائلتك.

ارتجفت يد ماهر، لكنه لم ينزلها.

— عائلتي هي السبب في أنني لن أكمل.

دفع الرجلان يحيى جانبًا، وواجهها الحارس. صاح ماهر:

— إلى الجدار!

لم يتحركا.

أطلق رصاصة في السقف. دوى الصوت في الممر، وتعالَت أصوات مضطربة خلف الأبواب. تناثر شيء من الطلاء الأبيض فوق الأرض.

قال ماهر:

— المرة التالية لن تكون في السقف.

تراجعا ببطء.

أسرع ماهر إلى يحيى، وقطع الرباط عن يديه، ثم ناوله بطاقة ممغنطة.

— نهاية الممر، الغرفة الحمراء. افتحها وخذ السجل.

سأله يحيى:

— وماذا عن المرضى؟

— لا يمكننا إخراجهم من المدخل الرئيسي. الحراس أكثر منا.

— لن أخرج من دونهم.

قبض ماهر على كتفه.

— إذا أردت إنقاذهم، خذ السجل أولاً. من دون الأسماء سيقولون إن الغرف كانت فارغة، وإنكم اخترعتم كل شيء.

نظر يحيى إلى الطبيب.

كان واقفاً قرب الجدار، لكن ملامحه لم تكن خائفة. بدا كمن يعرف أن الخطر الحقيقي لم يصل بعد.

قال:

— لا تثق به يا يحيى. هو الذي كان يجلب المرضى من القرى.

نظر يحيى إلى ماهر.

لم ينكر.

قال:

— نعم. كنت أعمل سائقاً للمؤسسة. أخبرناهم أن العلاج مجاني. وحين اختفى أول مريض قلت لنفسي إنه نُقل إلى مكان آخر. وحين رأيت الثاني يموت، أخذت المال وسكت. ابنتي سعاد خلف هذا الجدار منذ شهرين.

جاء صوت المرأة من الغرفة المجاورة:

— أبي؟

اهتز وجه الرجل.

اقترب من الباب ووضع كفه عليه.

— أنا هنا يا ابنتي.

قالت:

— قلت لي إنك ستعيدني إلى البيت.

أغمض عيني.

— وسأفعل.

نظر يحيى إلى ماهر. ها هو رجل آخر يقف على الحد الفاصل بين الجريمة والتوبة. كان قد ساق الآخرين إلى المكان حتى دخلت ابنته من الباب نفسه. لم يحتج الشر إلى معاقبته من خارج عمله؛ أعاد إليه خطيئته في أحب الوجوه.

قال الطبيب ساخرًا:

— مؤثر جدًا. لكن رجال الأمن سيصلون خلال دقائق.

دفع ماهر البطاقة إلى يد يحيى.

— اذهب.

ركض يحيى إلى نهاية الممر.

كانت الأبواب تحمل أرقامًا من واحد إلى سبعة عشر. خلف بعضها أنين، وخلف بعضها صمت أقسى من الأنين. فتح ببطاقته بابًا أحمر صغيرًا، فدخل غرفة مليئة بالخزائن والحواسيب.

على الطاولة ملفات ورقية تحمل رموزًا بدل الأسماء:

الحالة ٤١.

الحالة ٥٦.

الحالة ١٢.

تحت كل رمز عمر المريض، وتشخيصه، والجرعات التي أُعطيت له، ثم ملاحظات باردة: /استجابة محدودة. تدهور حاد. توقف التجربة.

كان الموت عندهم إجراءً إداريًا ينتهي بنقطة.

فتح إحدى الخزائن، فوجد جوازات سفر وبطاقات شخصية وهواتف قديمة. عشرات الهويات التي نُزعت عن أصحابها حين دخلوا. لم يكن تحويل البشر إلى أرقام وسيلة لتنظيم الملفات فقط؛ كان الخطوة الأولى لتسهيل إيدائهم. فالرقم لا أمّ له، ولا طفل ينتظره، ولا اسم يوقظ الضمير.

التقط يحيى هاتفًا من فوق الطاولة، لكنه كان بلا شبكة. بحث عن منفذ اتصال، فرأى سلكًا متصلًا بجهاز إرسال داخلي. تذكر شيئًا قاله سامر قديمًا: أجهزة التشويش تمنع الاتصال اللاسلكي، لكنها لا تقطع الخطوط الأرضية.

وجد هاتفًا مكتبيًا في الزاوية.

رفع السماعة.

لا صوت.

تتبع السلك حتى اكتشف أنه مفصول. أعاده إلى المنفذ، فظهر ضوء صغير.
ضغط رقم الطوارئ.

جاءه صوت موظف:

— ما طبيعة البلاغ؟

— أنا يحيى السالمي. محتجز في الجناح الشرقي من المستشفى المركزي.
يوجد مرضى محتجزون وتجارب طبية غير قانونية. أرسلوا قوة وإسعافًا،
وأخبروا نادر العنسي وعارف الحكيمي.

— أعطني موقعك بالتحديد.

— الطابق تحت الأرض، مدخل خلفي للشاحنات.

سمع حركة في الممر.

— أسرعوا.

أغلق الهاتف، ثم بدأ تصوير الملفات بهاتف وجده مشحونًا في الخزانة. أرسل
الصور عبر البريد المثبت عليه إلى عنوان نادر الذي يحفظه.

ظهرت رسالة: تم الإرسال.

في اللحظة نفسها انفتح الباب.

دخل الطبيب وحده.

لم يكن يحمل سلاحًا، بل ملفًا أسود.

قال:

— اتصلت بهم؟

— نعم.

— إذن لم يبق لنا وقت طويل.

تقدم إلى الحاسوب وأدخل كلمة مرور.

سأله يحيى:

— ماذا تفعل؟

— أمحو الخادم.

اندفع يحيى نحوه، لكن الطبيب أخرج مسدسًا صغيرًا من تحت معطفه.

— خطوة أخرى، وتموت قبل أن تعرف شيئًا مهمًا عن أمك.

توقف يحيى.

— ماذا بقي لأعرفه؟

— أنها لم تدخل المستشفى مصادفة في الليلة التي ساءت فيها حالتها.

— كانت مريضة منذ أشهر.

— نعم، لكن الجرعة التي قتلتها لم تكن لمجرد الضغط عليك. كان اسمها موجودًا في هذا البرنامج قبل أن تعمل أنت في المؤسسة.

شعر يحيى بأن الهواء انسحب من الغرفة.

— ماذا تقول؟

فتح الطبيب الملف الأسود وأخرج صورة قديمة. ظهرت خديجة جالسة في عيادة، وإلى جوارها الدكتور هاشم، وخلفهما شعار شركة دوائية.

كان التاريخ قبل ثلاث سنوات.

قال الطبيب:

— شاركت أمك في برنامج علاجي مجاني للقلب. ظنت أنه صدقة من المؤسسة. في الحقيقة كانت واحدة من مجموعة تجريبية تتابعها الشركة.

— هل كانت تعلم؟

— وقّعت أوراق موافقة.

— وهل شرحوها لها؟

— وقّعت.

قال يحيى بحدة:

— سألتك: هل فهمت ما وقّعت عليه؟

صمت الطبيب.

وكان صمته جوابًا.

تابع:

— حين بدأت تفتش في الحسابات، خافوا أن يصل التحقيق إلى ملفات المرضى. أراد منصور إخضاعك، أما الشركة فأرادت التخلص من حالة قد تكشف آثار الدواء القديم إذا فُحصت طبيًا.

اقترب يحيى خطوة، غير عابئ بالسلاح.

— من أمر بقتلها؟

— لم يكن الأمر بهذه الصيغة.

— القتل يحب الجمل الناقصة. من أمر؟

— المدير الإقليمي للشركة.

— اسمه؟

رفع الطبيب الملف.

— هنا اسمه، ومراسلاته، وتوقيعه. سلم نفسك لي، وأخرجك من المكان مع الملف.

نظر يحيى إليه غير مصدق.

— لماذا؟

— لأن الشبكة انتهت. رجالها يهربون، والشركة ستتخلى عنا جميعًا. لدي ممر يؤدي إلى سيارة خارجية. نخرج معًا، وأسأولهم بالملف على حماية جديدة.

فهم يحيى. الرجل لا يتوب؛ إنه يبذل الجهة التي يبيع لها أسرارَه.

— وماذا عن المرضى؟

— لا نستطيع حملهم.

— بل لا تريد.

— بعضهم سيموت حتى لو خرج.

— ولهذا تتركهم؟

رفع الطبيب المسدس.

— لا تجعل عاطفتك تقتلنا جميعًا.

قال يحيى:

— هذه الجملة هي التي بنت المكان: طبيب يقول إن مصلحة أكبر تستدعي التضحية بمريض، وموظف يقول إن أسرته تستدعي توقيعا، وحارس يقول

إن راتبه يستدعي الصمت. كل واحد منكم حمل نجاته الصغيرة، وبنيتم منها هذا الجحيم.

ظهر على شاشة الحاسوب شريط الحذف: عشرة في المئة.

قال الطبيب:

— القرار الآن. تأتي معي، أم تبقى مع أناس لا تعرفهم؟

نظر يحيى إلى ملفات الحالات، ثم إلى الأبواب خلف الجدار.

— أعرف ما يكفي. إنهم بشر.

ضغط الطبيب الزناد.

لكن الرصاصة لم تخرج.

نظر إلى السلاح مذعورًا، ثم حاول ثانية. كان المخزن فارغًا.

ظهر ماهر عند الباب، وجهه ينزف من جرح فوق حاجبه.

قال:

— نزلت الرصاص حين كنت في غرفة الطبيب.

انقضَّ على الرجل، واشتبكا. سقط المسدس، وارتطم الطبيب بالطاولة. أسرع يحيى إلى الحاسوب، وسحب سلك الكهرباء. انطفأت الشاشة عند ثلاثة وعشرين في المئة.

قال ماهر وهو يثبت الطبيب على الأرض:

— خذ الملف الأسود.

أخذه يحيى.

ثم دوى جرس إنذار في الجناح كله. أضاءت مصابيح حمراء، وانطلق صوت آلي يعلن عن حريق.

صاح الطبيب:

— النظام سيغلق الأبواب تلقائيًا!

ركض يحيى إلى الممر. حاول فتح غرفة سعاد بالبطاقة، فظهر ضوء أحمر.

— البطاقة توقفت!

قال ماهر:

— توجد مفاتيح يدوية في غرفة الحراسة.

لكن دخانًا بدأ يتسلل من آخر الممر.

لم يكن حريقًا عرضيًا. كانت خطة محو أخرى: إذا تعذر حذف الملفات، يُحرق المكان بمن فيه.

طرق المرضى الأبواب، وتعالَت الأصوات:

— أخرجونا!

— هناك دخان!

— افتحوا الباب!

وقف يحيى وسط الممر، محاطاً بسبعة عشر باباً، وخلف كل باب حياة لا يعرف اسمها.

قال الطبيب، وهو يضحك رغم الدم عند فمه:

— لن تستطيع إنقاذهم. اختر اثنين أو ثلاثة قبل أن تمتلئ الممرات بالدخان.

نظر يحيى إلى الأبواب.

لم يكن يستطيع خداع نفسه بشعارات البطولة. الوقت قصير، والمفاتيح بعيدة، والنار تتقدم. بعض القرارات لا تسمح للإنسان بإنقاذ الجميع، بل تجبره على اختيار من يُترك للموت.

قال ماهر:

— سعاد في الغرفة الثامنة. نخرجها أولاً.

نظر يحيى إليه. فهم خوف الأب، كما فهم ماهر ما في عينيه.

قال يحيى:

— وغرفة سبعة عشر أقرب إلى النار.

— ابنتي تموت!

— وكل باب خلفه ابن لأحد.

قبض ماهر على ثوبه.

— لا تطلب مني أن أساويها بالغرباء!

أمسك يحيى بيده.

— لن أطلب منك. اذهب إلى غرفة الحراسة وأحضر المفاتيح. سأبدأ من جهة النار.

ركض ماهر.

أما يحيى فالتقط مطفأة الحريق، واتجه نحو الغرفة السابعة عشرة. كان الدخان يزداد كثافة، والحرارة تصعد في الجدران. ضرب قفل الباب بالمطفأة مرة، ثم ثانية، ثم الثالثة.

صرخ من خلفه:

— ابتعدوا عن الباب!

ضربه حتى انكسر المقبض.

فتح الباب.

وجد شابًا مربوطًا إلى السرير، وفي ذراعه أنبوب دواء. قطعه، وفك
أربطته.

قال الشاب بصوت مدعور:

— لا أستطيع المشي.

حمله يحيى فوق كتفه.

خرج به إلى الممر، ووضعته قرب الباب الخارجي، ثم عاد.

الغرفة السادسة عشرة.

ثم الخامسة عشرة.

كل باب كان عالمًا كاملاً: رجل مسن لا يعرف أين هو، امرأة مصابة بحمى
شديدة، فتى لم يتجاوز السابعة عشرة، وعامل أجنبي لا يتحدث العربية. لم
يعودوا أرقامًا. صار لكل واحد وجه وارتجاف ويد تتعلق بالحياة.

عاد ماهر بالمفاتيح.

فتح غرفة ابنته، لكنه لم يحملها إلى الخارج أولاً. وضع ذراعها حول كتفه،
وقال لها:

— تستطيعين الوقوف؟

قالت بضعف:

— إذا كنت معي.

ثم بدأ يساعد يحيى في فتح الأبواب.

كانت تلك توبته الحقيقية: لم يتخلَّ عن ابنته، لكنه لم يجعل حبها سببًا لترك أبناء الآخرين.

وصل الدخان إليهم. تعثرت سعاد، وحملها أبوها. سقط جزء من السقف عند آخر الممر، وانقطعت الطريق إلى ثلاث غرف.

قال يحيى:

— كم بقي؟

— ثلاثة.

— من فيها؟

نظر ماهر إلى السجل المعلق قرب المفاتيح.

— الغرفة الأولى فارغة. الثانية فيها رجل بعد عملية. الثالثة...

توقف.

— ماذا؟

— فيها طفلة.

ركض يحيى نحو النار.

أمسك ماهر بذراعه:

— الطريق ينهار!

— أخرج الموجودين. سأعود.

— لن تعود.

نظر إليه يحيى وقال:

— إذن لا تنتظرني.

غطى وجهه بقطعة قماش، وزحف تحت الدخان. كانت الحرارة تحرق رئتيه، والأصوات من حوله تتحول إلى طنين بعيد. وصل إلى الغرفة الثالثة، وأدخل المفتاح.

لم يدر.

حاول مرة أخرى.

القفل عالق.

سمع سعال الطفلة خلف الباب.

ضربه بالمطفاة، لكن قوته كانت قد ضعفت. انحنى، وضرب مرة أخرى.

انفتح الباب قليلاً.

دخل.

وجد طفلة في نحو التاسعة، منكمشة تحت السرير، تمسك دمية بلا عيين. مد
يده إليها.

— تعالي.

هزت رأسها مذعورة.

— لن أؤذيك.

— قالوا إن أمي تركتني.

— أمك تنتظرك.

— أنت لا تعرفها.

اقترب منها وسط الدخان.

— صحيح. لكنني أعرف قلب الأم. لا يترك أبناءه، حتى حين يعجز عن
الوصول إليهم.

مدت يدها.

أخرجها من تحت السرير وحملها. وعند الباب سقط لوح مشتعل، فأغلق
الممر.

تراجع يحيى.

لم يعد هناك طريق إلى الخارج.

كانت الطفلة تختنق بين ذراعيه. خلع معطفه ولقّها به، ثم بحث في الغرفة عن نافذة أو فتحة تهوية. لم يجد إلا أنبوبًا صغيرًا في أعلى الجدار.

قالت الطفلة:

— هل سنموت؟

نظر إلى وجهها.

كان يستطيع أن يقول لها: لا، وهو لا يعلم. لكنه تذكر أن اليقين لا يقوم على الوعود التي لا نملكها.

قال:

— لا أعرف. لكنني لن أتركك وحدك.

ضمّت الدمية إلى صدرها، وأسندت رأسها إليه.

خارج الغرفة، كانت صفارات سيارات الإطفاء تقترب.

أما في الداخل، فقد جلس يحيى قرب الجدار، والطفلة في حضنه، والدخان يملأ المكان. رفع رأسه، وقال بصوت متقطع:

— يا رب، لم أعد أملك طريقًا... فافتح لنا من عندك.

ثم سمع من خلف الجدار صوت ضربات.

ضربة.

ثم أخرى.

وجاء صوت نادر بعيداً:

— يحيى! ابتعد عن الجدار!

احتضن الطفلة وانحنى فوقها.

وانفجر جزء من الجدار إلى الداخل. دخل رجال الإطفاء من الممر الخارجي، وسحبوهما قبل أن ينهار السقف بلحظات.

خرج يحيى إلى الهواء، وسقط على الأرض وهو يسعل. أخذت الطفلة من ذراعيه، لكنه ظل ممسكاً بيدها.

جاءت امرأة تركض من بين الناس، تصرخ باسمها:

— ليان!

فتحت الطفلة عينيها ومدت ذراعيها.

احتضنتها أمها وهي تبكي.

نظر يحيى إليهما، فتذكر أمّه. أحسّ للحظة أن يدًا خفية ردت إلى امرأة أخرى ابنتها، بعد أن عجز هو عن ردّ أمّه إلى الحياة.

اقترب منه نادر.

— هل أنت حي؟

ابتسم يحيى وهو يلهث.

— يبدو أنني ما زلت سيئاً في اتباع نصائحك.

جلس نادر قربه.

— هذه المرة لن أجادلک.

وصل عارف، يحمل آلة التصوير.

قال:

— أرسلت الصور والملفات إلى ثلاث صحف وجهتين دوليتين قبل المداهمة.

لم يعد بإمكانهم دفن القضية.

سأل يحيى:

— المرضى؟

— خرج ستة عشر أحياء. مات رجل قبل وصولنا، لكن اسمه معنا.

رفع يحيى رأسه.

— ما اسمه؟

فتح عارف السجل.

— عبد الرحيم غالب.

كرر يحيى الاسم ببطء.

لم يرد أن يكون الرجل “الحالة ٥٦” في آخر الحكاية. كان له اسم، وربما بيت، وربما أم انتظرتة، أو طفل ظل يظن أن أباه في رحلة علاج.

وقف المسعفون حول يحيى، ووضعوا الأكسجين على وجهه. وقبل أن يُنقل، جاءه أحد المحققين بالملف الأسود.

— وجدناه في الممر. أهو الذي أخذته من غرفة السجلات؟

أوماً.

قال المحقق:

— فيه أسماء جميع المسؤولين عن البرنامج، وتقارير عن مئة واثنى عشر مريضاً.

— أين هم؟

تردد الرجل.

— بحسب السجلات، توفي سبعة وأربعون، ونُقل خمسة وثلاثون إلى أماكن غير معروفة، والبقية خرجوا بإعاقات أو مضاعفات خطيرة.

أغلق يحيى عينيه.

سبعة وأربعون اسمًا.

لم تكن أمّه الضحية الأولى فعلاً، لكنها صارت الباب الذي قاده إلى أصوات لم يكن أحد يسمعها.

وفي أعلى الصفحة الأخيرة وجد المحقق أمرًا إداريًا بإنهاء البرنامج وإحراق الجناح إذا تعرض للكشف.

كان التوقيع يعود إلى المدير الإقليمي للشركة.

أما اسم المدير، فكان مكتوبًا كاملاً:

جلال عبد الكريم السالمي.

قرأ يحيى الاسم، ثم نظر نحو خاله الذي وصل للتو إلى ساحة المستشفى، يركض بينهم باحثًا عنه.

كان جلال شقيق خاله الأصغر، الرجل الذي قيل للعائلة منذ خمسة عشر عامًا إنه هاجر وانقطعت أخباره.

توقف عبد الكريم حين رأى الورقة في يد المحقق.

وتحوّل وجهه إلى لون الرماد.

قال يحيى:

— أنت تعرف أنه حي.

لم يجب خاله.

— وتعرف أين كان.

اقترب عبد الكريم، ثم جلس على الرصيف كأن ساقيه لم تعودا قادرتين على حمله.

وقال بصوت خرج من قاع سنوات طويلة:

— كنت أعرف أنه يعمل معهم... لكنني أقسم أنني لم أعرف ماذا يفعل في هذا الجناح.

نظر إليه يحيى.

لقد وصل الشر هذه المرة إلى داخل العائلة، إلى الرجل الذي فتح بيته لمريم، وبكى عند قبر أمّه، وسجل اعتراف منصور.

وللمرة الأولى لم يكن السؤال: هل سيختار يحيى الحقيقة أم منفعتة؟

بل: هل سيختارها حين يكون الذي ستسقطه يحمل اسم أسرته؟

الفصل الثاني عشر

الثلث الأخير

نُقل يحيى إلى قسم الطوارئ، لكن جسده لم يكن أكثر ما يؤلمه.

جلس على السرير، وقناع الأكسجين يغطي نصف وجهه، فيما كان خاله عبد الكريم واقفاً عند الباب، عاجزاً عن الدخول أو المغادرة. بينهما اسم واحد جعل القرابة فجأة موضع اتهام:

جلال عبد الكريم السالمي.

كان الرجل الذي يحمل اسم العائلة نفسها يقف، بحسب الوثائق، فوق شبكة جرّبت أدوية محرمة على أجساد الفقراء، وأخفت موتهم، وأمرت بإحراق الجناح بمن فيه. ولم تكن خديجة امرأة غريبة سقطت في طريقه؛ كانت ابنة عمّه وزوجة أخيه الكبرى في النسب، والمرأة التي حملته صغيراً يوم ماتت أمّه.

نزع يحيى قناع الأكسجين.

— ادخل يا خالي.

دخل عبد الكريم وأغلق الباب. جلس على الكرسي، لكنه لم يرفع عينيه.

قال يحيى:

— منذ متى تعرف أن جلال يعمل مع الشركة؟

— منذ سنوات.

— ولماذا قلتم لنا إنه هاجر وانقطعت أخباره؟

مسح الرجل وجهه بكفيه.

— لأنه طلب ذلك. قال إن طبيعة عمله حساسة، وإن ظهوره قد يعرضنا للخطر.

— وصدّقه؟

— أردت أن أصدقه.

لم تكن العبارة دفاعاً، بل اعترافاً. فالإنسان لا يُخدع دائماً لأن الكاذب بارع؛ أحياناً يُخدع لأنه يحب الرواية التي تعفيه من الأسئلة.

قال يحيى:

— هل كنت تتواصل معه؟

— على فترات. كان يتصل من أرقام مختلفة، ويرسل أموالاً.

— أموالاً لمن؟

— لي.

أغمض يحيى عينيه.

شعر عبد الكريم بثقل الكلمة، فأسرع يقول:

— لم آخذها لنفسي كلها. أصلحت البيت، وساعدت أختك، ودفعت بعض نفقات علاج أمك.

فتح يحيى عينيه ببطء.

— علاج أمي؟

— قبل أن تُفصل من عملك بأشهر. كنت أقول لها إن المال من تجار أعرفهم.

— هل كانت تعرف أنه من جلال؟

— لا.

هبط الصمت بينهما.

ها هو المال الذي رفضه يحيى في مكتب منصور قد وجد طريقًا آخر إلى البيت، متخفيًا في صورة مساعدة من خال. لم يكن يعرف، ولم تكن أمه تعرف، لكن الحقيقة مع ذلك لسعته: لقد دفعت الشبكة جزءًا من علاج من كانت تجرب عليها، ثم استردت حياتها حين صارت خطرًا.

قال عبد الكريم:

— أقسم إنني لم أعرف مصدر المال.

— لم تسأل.

— كان أخي.

— ولهذا كان يجب أن تسأل أكثر، لا أقل.

ارتفع صوت عبد الكريم:

— كنت أرى أختي مريضة وأنت عاجزاً! ماذا كنت تريد مني؟ أن أعيد المال لأنني لا أعرف كل تفاصيله؟

— كنت أريد منك ألا تجعل حاجتنا تغلق عينيك.

وقف الرجل.

— سهل عليك أن تدينني الآن. أنت رفضت التوقيع، فصار رفضك قصة يتحدث بها الناس. أما أنا فكنت أجمع ثمن الدواء، وأخفي عن أختي أن صاحب البيت يهدد بطردهم.

قال يحيى:

— لا أدين حاجتك.

— بل تدينني كلها بنظرتك.

— أنا أدين الصمت الذي حمى جلال.

أشاح عبد الكريم بوجهه.

قال يحيى:

— ماذا طلب منك مقابل المال؟

لم يجب.

— خالي؟

اقترب من النافذة، ووضع يديه خلف ظهره. بدت كتفاه منحنييتين كما لم يرهما يحيى من قبل.

— طلب معلومات عنك.

— أيّ معلومات؟

— عن عمك، وعلاقة أمك بالدكتور هاشم، وموعد مراجعاتها، وما إذا كنت تتحدث في البيت عن ملفات المؤسسة.

توقف نفس يحيى.

— كنت تراقبني له؟

استدار عبد الكريم سريعاً.

— لم أفهم الأمر بهذه الصورة! قال إنه يخشى عليك، وإن المؤسسة تشك فيك، وإنه يستطيع حمايتك.

— فأخبرته بمرض أمي.

— كان يعرف مرضها.

— وأخبرته بموعد دخولها المستشفى.

خفض رأسه.

شعر يحيى أن السرير يمد تحته.

لم يكن خاله قاتلاً، لكنه فتح نافذة دخل منها القاتل. كما فعل الطبيب حين سلّم كلمة مروره، وسامر حين عدّل التاريخ، وفؤاد حين أنفق من المال، وماهر حين قاد المرضى. كل واحد منهم ظن أنه يقدم معلومة صغيرة أو توقيماً صغيراً أو صمماً صغيراً. لكن الجريمة الكبرى لم تكن سوى تلك الأشياء الصغيرة حين تعاقدت فيما بينها.

قال يحيى بصوت خافت:

— حين جاء رجال المؤسسة إلى غرفة أمي، كنت تعرف أنهم يعرفون مكانها منك.

— لم أكن أعرف أنهم هم. جلال قال إنه سيرسل من يساعد في علاجها.

— وحين ذهبت إلى منصور، هل ذهبت فعلاً لتطلب خروجي؟

تردد عبد الكريم.

كانت لحظة التردد كافية.

نهض يحيى رغم الدوار.

— ماذا طلب منك جلال؟

— أن أقنعك بالتسوية.

— والتسجيل الذي أخذته لمنصور؟

— سجلته لنحمي أنفسنا إذا غدر بنا.

— بنا؟ من نحن؟

صمت الرجل.

قال يحيى:

— هل عرف جلال بالتسجيل؟

— نعم.

— إذن هو الذي سمح بتسليم منصور.

جلس عبد الكريم ووضع رأسه بين يديه.

— كانت الشبكة تتخلى عن الأطراف. جلال قال إن منصور تجاوز حدوده،
وإن القبض عليه سينهي الخطر.

فهم يحيى الصورة. لم يكن خاله يقف خارج المعركة كما ظن؛ كان حلقة غير
واعية في أول الأمر، ثم حلقة خائفة، ثم حلقة تعرف بعض الحقيقة وتختار
ألا تعرف بقيتها.

قال عبد الكريم:

— حين ماتت أختي، عرفت أنهم خدعوني.

— ومع ذلك لم تخبرني عن جلال.

— لأنه أخي.

— وهي أختك.

رفع عبد الكريم وجهه، وقد امتلأت عيناه بالدموع.

— ولهذا كنت أموت بينهما كل يوم.

أجابه يحيى:

— أمي هي التي ماتت. أما أنت فكنت تؤجل اختيارك.

خرج عبد الكريم من الغرفة، منكسراً تحت حقيقة لم تعد تحتل مزيداً من الإخفاء.

دخلت مريم بعد دقائق.

كانت قد سمعت جزءاً من الحديث من الممر. جلست بعيداً عن أخيها، وعيناها معلقتان بالأرض.

قالت:

— هل كان خالي سبباً في موتها؟

— لا أعرف مقدار سببه.

— لكنه أخبرهم عنها.

— نعم.

— وسنسلمه إلى الشرطة؟

لم يجب يحيى مباشرة.

كان السؤال الذي عاش من أجله طوال الأسابيع الماضية قد عاد إليه في صورته الأقسى. حين كان المتهم منصور، بدت العدالة واضحة. وحين كان الطبيب أو فؤاد، ظلت ممكنة رغم التعقيد. أما الآن فقد صار عليها أن تمر من بيت خاله، ومن طفولته، ومن الرجل الذي أطعمهم في سنوات الفقر وفتح منزله لمريم بعد وفاة أمها.

قالت مريم:

— أريد أن أكرهه.

نظر إليها.

— لكنني أتذكر أنه كان يحملني إلى المدرسة، وأنه باع خاتم زوجته يوم احتجنا إلى رسوم الجامعة. كيف يكون الإنسان طيبًا هكذا وسيئًا هكذا؟

قال يحيى:

— لأن البشر لا يُصنعون من مادة واحدة. قد تكون في الرجل يد تطعمك ويد تفتح بابًا لعدوك، وقد يحبك ثم يؤذيك حين يختار خوفه فوقك.

— وهل نغفر له؟

— لا أعرف بعد.

— أمي كانت ستغفر.

— ربما. لكنها لم تكن ستكذب لتحميه.

نظرت مريم إليه.

قال:

— العفو حق للمجروح، أما إخفاء الحقيقة فقد يجرح آخرين. خالي لا يملك حق دفن أسماء المرضى لحماية أخيه، ونحن لا نملك هذا الحق لحمايته.

دخل نادر يحمل نتائج الفحوص. وجد الصمت بينهما، فعرف أن الحديث وقع.

قال:

— عبد الكريم خرج من المستشفى.

— هل رأيته؟

— نعم. كان معه رجلان، وركب سيارة سوداء.

نهض يحيى.

— هل أخذ بالقوة؟

— لم يظهر ذلك. فتح الباب بنفسه.

أخرج هاتفه واتصل بخاله.

مغلق.

قال نادر:

— يجب إبلاغ فريق التحقيق.

قالت مريم بسرعة:

— ربما ذهب إلى جلال.

نظر إليها يحيى.

— ليحذره؟

— أو ليأتي به.

كان الاحتمالان يخرجان من الرجل نفسه، ولم يعد أحد يعرف أيهما سيتغلب.

بعد ساعتين، بثت إحدى القنوات تسجيلًا مصورًا لعبد الكريم.

جلس أمام جدار أبيض، وبدا وجهه شاحبًا، وعلى الطاولة أمامه جواز سفر ومبلغ كبير من المال.

قال في التسجيل:

— أنا عبد الكريم السالمي، أقر بأن ابن أختي يحيى كان يعلم ببرنامج التجارب الطبية، وأنه حاول الحصول على المال مقابل عدم كشفه. ولما

رفضت الشركة دفع المبلغ، حرّض على اقتحام الجناح، وتسبب في الحريق وموت أحد المرضى.

صرخت مريم:

— إنه يكذب!

ظل يحيى واقفاً أمام الشاشة.

تابع خاله:

— كما أقر بأن وفاة أختي خديجة كانت نتيجة مرضها، وأن يحيى استغل موتها لتشويه المؤسسة والضغط عليها.

انتهى التسجيل.

قال نادر:

— واضح أنه أكره.

أعاد المقطع، وأوقفه عند يد عبد الكريم. كانت أصابعه تتحرك فوق الطاولة: إصبعان، ثم ثلاثة، ثم إصبع واحد.

قال يحيى:

— ليس مجرد ارتباك.

— ماذا تقصد؟

— كان أبي وخالي يستخدمان إشارات بالأصابع في السوق القديم حين يريد أحدهما تحذير الآخر من بائع مخادع. اثنان وثلاثة وواحد تعني: لا تصدق، راقب الباب.

أعاد نادر المقطع. في الزاوية اليمنى ظهر انعكاس باب زجاجي، وخلفه جزء من لوحة تحمل شعارًا أزرق.

قالت مريم:

— أعرف هذا الشعار.

— أين رأيته؟

— على أكياس الأدوية التي كانت تصل لأُمِّي ضمن البرنامج المجاني.

أحضر يحيى أحد الأكياس القديمة من غرفة أمّه. كان الشعار نفسه: هلال أزرق يتوسطه خط أبيض، وتحتة اسم الشركة:

مجموعة الحياة الدوائية.

قال نادر:

— ربما صُوِّر التسجيل في أحد مستودعاتهم.

اتصل عارف بعد دقائق.

— حددت المكان. للشركة مختبر قديم خارج المدينة، مسجل بوصفه مصنعًا متوقفًا. أرسلته إلى فريق التحقيق.

قال يحيى:

— سأذهب.

صرخ نادر:

— خرجت قبل ساعات من حريق، وما زالت رئتاك ممتلئتين بالدخان!

— خالي هناك.

— والشرطة في الطريق.

— إذا أراد جلال الهرب، سيأخذ أخاه معه أو يقتله.

قالت مريم:

— اذهب معه.

التفت إليها نادر.

— لا تشجعيه.

— أنا لا أشجعه على اقتحام المكان. أطلب منك ألا تتركه يذهب وحده؛ لأنني أعرف أنه سيذهب سواء وافقت أم لا.

تنهد نادر.

— هذه العائلة تحتاج إلى محامٍ وطبيب أعصاب في وقت واحد.

وصلوا إلى المصنع بعد فريق التحقيق بدقائق.

كانت البوابة مفتوحة، والحراس قد فروا. في الداخل وُجدت أجهزة محترقة وأوراق ممزقة، لكن جلال وعبد الكريم لم يكونا هناك.

قادهم أثر سيارة إلى مهبط صغير خلف المبنى. كانت طائرة خاصة تستعد للإقلاع، ومحركاتها تدور. وقفت سيارة سوداء قرب السلم، ورجلان مسلحان يدفعان عبد الكريم نحو الطائرة.

أما جلال فكان واقفاً عند الباب.

راه يحيى للمرة الأولى منذ طفولته. كان يشبه خاله في تقاطيع الوجه، لكنه أنحف، وأكثر عناية بمظهره. لم يبدُ كالرجل الذي أمر بتجارب على الفقراء؛ بدا رجل أعمال هادئاً، يستطيع أن يجلس في مؤتمر ويتحدث عن إنقاذ البشرية بابتسامة واثقة.

أحاطت القوة بالمكان.

رفع أحد الرجال سلاحه إلى رأس عبد الكريم.

صاح جلال:

— ابتعدوا، أو يموت!

توقف الجميع.

قال قائد القوة عبر مكبر الصوت:

— ألقوا أسلحتكم.

ضحك جلال.

— لدي موافقة مغادرة رسمية، وهذه الطائرة مسجلة دوليًا. أي اقتراب
سيصنع أزمة لا تستطيعون تحملها.

خرج يحيى من خلف السيارة.

صاح نادر:

— ارجع!

لكن جلال رآه.

— أهلاً بابن خديجة.

اقترب يحيى ببطء، ويداه ظاهرتان.

— اترك خالي.

— خالك اختار أن يأتي.

نظر يحيى إلى عبد الكريم.

كان وجهه مصاباً، ويداه مقيدتين.

قال عبد الكريم:

— لا تصدقه. جئت لأخذ اعترافه، فأخذني.

قال جلال:

— ما زلت تحاول أن تبدو صالحًا في المشهد الأخير.

رفع عبد الكريم صوته:

— أخبرهم بالحقيقة يا يحيى. أخبرهم أنني أعطيت جلال أخباركم، وأن مالي دخل بيتكم، وأنني ساعدتهم وإن لم أعرف كل شيء.

أجابه يحيى:

— ستقول ذلك بنفسك أمام القضاء.

ابتسم جلال.

— القضاء؟ أتظنون أن أسماء بهذا الحجم تسقط بوثائق وصور؟ سيأخذونني اليوم، ويخرجونني غدًا. ثم سيُقال إن التجارب كانت قانونية، وإن المرضى وافقوا، وإن الحريق خطأ كهربائي.

قال يحيى:

— لهذا تهرب؟

— لا أهرب. أنتقل إلى مكان يفهم قيمة العلم.

— العلم الذي يحتاج إلى أجساد الفقراء سرًّا ليس علمًا؛ إنه افتراس يرتدي معطفًا أبيض.

رد جلال ببرود:

— كل دواء تستخدمه البشرية اليوم مرّ بتجارب. التقدم له ثمن.

— فلماذا لم تدفعه بأجساد أبنائكم؟

تحرك شيء في وجه جلال، ثم عاد إلى جموده.

— لأن العالم لم يُبنَ على المساواة التي تتخيلها. هناك من يصنع المستقبل، وهناك من يكون مادته.

قال يحيى:

— وكل طاغية يبدأ حين يقنع نفسه أن إنسانًا ما أقل إنسانية منه.

أشار جلال إلى الطائفة.

— تعال معي.

ساد الصمت.

قال يحيى:

— ماذا؟

— أصبحت اسمًا معروفًا. قصتك مؤثرة، وسمعتك نظيفة. نستطيع تحويل ما حدث إلى مشروع إنساني كبير. مؤسسة لتعويض المرضى، ومستشفى يحمل اسم أمك، وأنت رئيسه.

نظر عبد الكريم إليه مذعورًا.

قال جلال:

— سنغلق هذا الملف، ونعوض الأسر، ونفتح صفحة جديدة. ليس عليك أن تكذب؛ فقط قل إن المسؤولية فردية، وإن الشركة لم تكن تعلم بالتجاوزات.

— وتخرج أنت بريئاً.

— أخرج قادراً على إصلاح ما حدث. سجنني لن يعيد أحداً، أما بقائي فيمكن أن يبني مستشفى يعالج الآلاف.

كان العرض أكثر ذكاءً من عرض منصور. لم يعد مალًا أو منصبًا أو علاجًا للأم. جاء هذه المرة في صورة خير عام: مستشفى باسم خديجة، وتعويض للضحايا، وإنقاذ لآلاف المرضى.

وهذه أخطر المساومات: أن يُطلب من الإنسان دفن الحقيقة لا من أجل شهوته، بل تحت راية منفعة كبرى.

قال جلال:

— فُكّر بعقل. العدالة التي تريدها ستمنحك نشوة قصيرة، ثم يضيع المشروع، وتبقى الأسر بلا تعويض. أما أنا فأملك المال والعلاقات.

نظر يحيى إلى خاله، ثم إلى الطائرة، ثم إلى القوة المتوقفة.

سأله:

— وهل تحتفظ بأسماء المرضى جميعاً؟

— نعم.

— والسجلات الأصلية؟

— في مكان آمن.

— والتعويض؟

— يُدفع فورًا إذا أعلنت قبول التسوية.

قال نادر من خلفه:

— لا تجبه!

لكن يحيى رفع يده يطلب منه الصمت.

ثم قال لجلال:

— أوافق بشرط.

صرخت مريم، التي وصلت مع عارف:

— يحيى!

نظر الجميع إليه.

أما جلال فابتسم.

— كنت أعرف أنك أكثر عقلًا من أمك.

تغير وجه يحيى، لكنه ضبط نفسه.

— شرطي أن تسلمني السجلات الأصلية الآن، وأن تطلق خالي.

— تحصل عليها بعد إقلاع الطائرة.

— بلا دليل لا توجد صفقة.

فكر جلال لحظات، ثم أشار إلى أحد رجاله. أخرج الرجل حقيبة معدنية من السيارة ووضعها على الأرض.

— كل السجلات هنا.

قال يحيى:

— افتحها.

فتحها الرجل. ظهرت أقراص تخزين وملفات مختومة.

أشار جلال إلى عبد الكريم، ففك الرجل قيده ودفعه إلى الأمام.

مشى عبد الكريم خطوات نحو يحيى. وحين ابتعد عن السلاح، انقض أحد القناصة على الرجل المسلح برصاصة أصابت ذراعه. في اللحظة نفسها تقدمت القوة.

أمسك جلال بالحقيبة وحاول الصعود إلى الطائرة.

ركض يحيى نحوه.

التفت جلال وأطلق النار.

دفع عبد الكريم ابن أخته جانبًا، فأصابته الرصاصة في صدره.

سقط.

تجمد يحيى لحظة، ثم أسرع إليه. أما القوة فحاصرت جلال عند سلم الطائرة وألقت القبض عليه.

وضع يحيى يده فوق جرح خاله.

قال عبد الكريم بصوت متقطع:

— الحقيقة...

— أخذوها.

— لا تدعهم... يجعلونني بريئًا.

— لا تتكلم.

أمسك عبد الكريم بيده.

— قل الحقيقة كلها... لا تقل إنني كنت ضحية فقط. أنا ساعدتهم. خفت، وطمعت، وسكتُ.

امتلأت عينا يحيى بالدموع.

— ستقولها بنفسك.

ابتسم خاله ابتسامة شاحبة.

— ربما.

اقترب المسعفون، لكن عبد الكريم ظل ممسكاً بيد يحيى.

— أمك... هل تظن أنها تغفر لي؟

اختلف صوت يحيى.

— كانت تعرف ضعفك، وكانت تحبك.

— لم أسأل عن حبها.

نظر يحيى إلى وجهه، ثم قال:

— المغفرة عند الله، وأمّي بين يديه. لكنك في النهاية عدت إلى الجهة التي كانت تنتظرك فيها.

أغمض عبد الكريم عينيه.

حملة المسعفون إلى سيارة الإسعاف. كان حيناً حين أُغلقت الأبواب، لكن نبضه ضعيف.

وقف يحيى في أرض المهبط، والريح التي أحدثتها محركات الطائرة تضرب وجهه. قُبِدَ جلال واقتيد إلى السيارة. وحين مر بقربه قال:

— أضعت مستشفى كان سيحمل اسم أمك.

أجابه يحيى:

— اسمها لا يحتاج إلى مبنى أقيم على قبر الحقيقة.

— وسيبقى الفقراء بلا علاج.

— سنبنى لهم ما نستطيع، لكننا لن نضع حجره الأول فوق أجسادهم.

أدخل جلال السيارة.

فتح المحققون الحقيقية، فوجدوا السجل الكامل للمرضى، والعقود السرية، والحسابات الدولية، وتسجيلات تثبت علم إدارة الشركة بكل ما جرى.

قال عارف:

— هذه الحقيقة ستسقط رجالاً لم تظهر أسماؤهم بعد.

نظر يحيى إلى سيارة الإسعاف وهي تبتعد بخاله.

لقد اختار الحقيقة، لكنه لم يشعر بانتصار. كانت الأرض حوله ممتلئة بالدم والخسارات، والذين عادوا إلى الصواب عادوا مثقلين بما فعلوه قبل العودة.

وفهم أن الثبات لا يمنح صاحبه حياة بلا ندم، ولا يحول كل نهاية إلى فرح. إنه فقط يمنعه من إضافة خيانة جديدة إلى الآلام التي لم يستطع منعها.

نجا عبد الكريم بعد عملية طويلة.

وحين أفاق، طلب أن يسجل اعترافه كاملاً. لم يطلب حصانة، ولم يحاول تقليل دوره. ذكر الأموال والمعلومات واللقاءات، وسلم كل ما احتفظ به من رسائل جلال.

قال له المحقق:

— تعاونك قد يخفف الحكم.

أجاب عبد الكريم:

— لا أريد تخفيف الحقيقة. اكتبوا ما فعلت، ثم دعوا للقاضي أمر الحكم.

أما فؤاد، فقد نجا هو الآخر، وسلّم نفسه بعد خروجه من العملية. واعترف بأخذ المال وإخفاء الدليل، كما قدم تسجيلاته ضد الشبكة.

وسامر ظل ينتظر محاكمته، وقد اختار أن يشهد على نفسه قبل أن يشهد على الآخرين.

بدت القضية كلها كأنها لم تجمع أشرارًا كاملين وأخيرًا كاملين، بل جمعت بشرًا وقف كل واحد منهم في لحظة أمام باب: بعضهم دخل من الجهة الخطأ ومضى بعيدًا، وبعضهم عاد بعد خطوة، وبعضهم لم يعد إلا حين احترق الطريق خلفه.

أما يحيى، فلم يطلب لنفسه براءة تصنعها الأكاذيب الجميلة. شهد ضد جلال ومنصور، وشهد بالحقيقة عن سامر وفؤاد وعبد الكريم: لم يُسقط عنهم ذنوبهم، ولم يسمح أن تُمحي شجاعتهم المتأخرة.

فالحقيقة لا تكون عادلة إذا اختارت من الإنسان جزءًا واحدًا لتقدمه إلى المحكمة.

وقبل بدء المحاكمة بيوم واحد، وصل إلى يحيى عرض أخير.

لم يكن من رجل هارب، ولا من مؤسسة فاسدة، بل من ممثلي أسر المرضى أنفسهم.

قال المتحدث باسمهم:

— إذا دخلت القضية المحاكم، فقد تستغرق سنوات، وقد تُجمّد أموال الشركة فلا نحصل على شيء. عرضوا علينا تعويضًا كبيرًا مقابل سحب الشكاوى، بشرط أن تتوقف أنت عن النشر.

نظر يحيى إلى الوجوه أمامه. فقراء أنهكهم العلاج، وأرامل يحتجن إلى طعام أبنائهن، وآباء يحملون تقارير مرضية لا يملكون ثمن دوائها.

لم يكن يستطيع أن يطلب منهم التضحية بأموال يحتاجونها، كي تبقى صورته الأخلاقية كاملة. ولم يكن يستطيع أن يقبل صفقة تدفن أسماء الموتى.

للمرة الأخيرة، لم تقف الدنيا أمامه في صورة شهوة.

وقفت في صورة حقوق عاجلة لأناس مسحوقين، وفي الجهة الأخرى عدالة قد تتأخر حتى يموت بعضهم قبل أن يروها.

قال أحد الآباء:

— أنت خسرت أمّك، ونحن نخسر أبناءنا كل يوم. لا تطلب منا بطولة لا نستطيع إطعامهم بها.

ظل يحيى صامتًا.

وكان يعرف أن الجواب هذه المرة لن يُكتب بقلبه وحده؛ لأن القيم التي لا تسمع أنين الناس قد تتحول، من حيث لا تشعر، إلى نوع آخر من القسوة.

الفصل الثالث عشر

يوم تكلمت المدينة

لم يغضب يحيى من الأب الذي قال له: لا تطلب منا بطولة لا نستطيع إطعام أبناءنا بها.

كان الرجل يحمل طفلاً هزياً، تلفّ عنقه ندبة طويلة، وفي يده ملف طبي أثقل من ذراعه. لم يكن يبحث عن معنى كبير يخلّد موقفه، بل عن مال يشتري به جرعة العلاج المقبلة. ومن يقف خارج ألمه يستطيع أن يتحدث طويلاً عن الصبر والعدالة، أما هو فكان يرى ابنه يضعف كل صباح، ويعرف أن المحاكم لا تصرف الدواء على نية الحكم القادم.

جلس يحيى بين أسر الضحايا، لا أمامهم.

قالت امرأة مسنة:

— ابني مات في الجناح، وترك أربعة أطفال. الشركة تعرض مبلغاً يكفي لتعليمهم. ماذا أستفيد إذا سُجن جلال وبقي أحفادي جائعين؟

وقال رجل آخر:

— إذا رفضنا، قد يهرب المال إلى الخارج. هؤلاء يعرفون كيف يخرجون من القضايا.

أما أم ليان، الطفلة التي أخرجها يحيى من الحريق، فقالت:

— لكنهم إذا اشتروا صمتنا، سيفعلونها في بلد آخر.

رد الأب الأول:

— وهل نترك أبناءنا يموتون كي نحمي أناسًا لا نعرفهم؟

تحرك الألم في الغرفة من جهة إلى جهة. لم يكن أحد منهم خائفًا، ولم يكن أحد جشعًا. كانت الحاجة تتكلم بأصوات مختلفة، وكل صوت يحمل حقًا لا يجوز الاستهانة به.

قال ممثل الشركة، وكان محاميًا هادئًا في بدلة رمادية:

— العرض لا يمنع الجهات المختصة من مواصلة ما تراه. المطلوب فقط تنازل الأسر عن دعاوى التعويض، والتزامها بعدم الإدلاء بتصريحات تسيء إلى سمعة الشركة.

سأله نادر:

— وما المقصود بالإساءة؟

— نشر اتهامات لم يصدر فيها حكم نهائي.

— أي أن الأم التي مات ابنها لا تستطيع أن تقول إنه كان محتجزًا عندكم؟

— تستطيع الحديث عن ألمها، لا عن مسؤولية الشركة قبل ثبوتها.

قال يحيى:

— وتريدون مني التوقف عن النشر؟

— نريد منك الامتناع عن تقديم نفسك متحدًا باسم الأسر، وعن نشر الوثائق التي تُعد ملكًا تجاريًا سرّيًا.

— سجلات البشر الذين ماتوا ليست أسراركم التجارية.

— هناك قوانين لحماية البيانات.

ابتسم نادر بمرارة.

— حين احتجزتم المرضى كانت البيانات ملككم، وحين نريد إثبات احتجازهم أصبحت خصوصية يجب حمايتها.

فتح المحامي ملفًا ووضع العرض أمام الأسر.

كانت الأرقام كبيرة بالنسبة إلى أناس لم يملك بعضهم ثمن الطريق إلى العاصمة. رأى يحيى العيون تتعلق بها، ثم تنسحب خجلًا، كأن الفقير مطالب بأن يعتذر كلما فكر في حاجته.

قال المحامي:

— العرض صالح ثمانٍ وأربعين ساعة فقط.

نهض ليغادر، فقال يحيى:

— أريد أن أسألك سؤالًا.

توقف.

— لو كان ابنك بين الموتى، هل كنت ستسمي ثمن صمتك تعويضًا؟

اشتد وجه المحامي.

— أنا أمثل موكلي، ولا أناقش افتراضات شخصية.

— لأن البدلة تحميك من تخيل السرير.

غادر الرجل.

بعد خروجه، التفتت الأنظار إلى يحيى.

كانوا ينتظرون منه موقفًا واضحًا، لكنه قال:

— لا أملك أن أطلب منكم رفض المال. التعويض حقكم، وحاجاتكم حقيقية،

ولا ينبغي أن تتحولوا إلى وقود لموقف بطولي يتحدث به غيركم.

سأل الأب:

— إذن تقبل العرض؟

— أقبل أن تأخذوا حقوقكم، ولا أقبل أن يُشترى بها صمتكم. وهذان الأمران

لا ينبغي أن يكونا متناقضين.

قال رجل من آخر القاعة:

— الشركة جعلتهما متناقضين.

أجاب نادر:

— لأن الاتفاق صيغ هكذا، لا لأن القانون يفرضه.

أخرج أوراقًا أعدها قبل الاجتماع.

— جرائم الاحتجاز والتجارب غير المشروعة والقتل لا تسقط بتنازل الأسر؛ لأنها من حقوق المجتمع أيضًا. ويمكن المطالبة بتجميد أصول الشركة وإنشاء صندوق تعويض قضائي عاجل، يُدفع منه للمرضى قبل انتهاء المحاكمة.

قالت المرأة المسنة:

— والمحكمة قد ترفض.

— نعم.

نظروا إلى يحيى.

قال:

— وإذا رفضت، نطلب من الناس أن يروا الرفض. لا نختبئ في غرف مغلقة. نجعل أسماء المرضى وحاجاتهم أمام المدينة، لا بوصفهم أرقامًا في قضية، بل بوصفهم أصحاب حق عاجل.

سأله الأب:

— وهل ستدفع الصحف ثمن علاج ابني؟

اقترب يحيى منه.

— لا أعذك بما لا أملك. لكنني أضع مالي وتعويضي وأي مبلغ يأتي من قصتي في الصندوق، وأبدأ بابنك.

ساد الصمت.

قال نادر:

— التعويض الذي عرضته المؤسسة على يحيى وحده يكفي لبدء علاج عدد من الحالات.

نظر الأب إليه:

— ستتنازل عنه؟

أجاب يحيى:

— ليس مالي. لولا ما وقع لهؤلاء، لما دُفع لي.

قالت مريم من جوار الباب:

— ونبيع بيت أمي.

التفت إليها يحيى مذعورًا.

— لا.

— البيت لنا معًا.

— وهو كل ما تركته.

— لم تتركه كي نحرس جدرانه ويضيع المعنى الذي أقامته داخله.

قال بصوت خافت:

— أين نعيش؟

— في بيت خالي حتى يخرج، أو نستأجر غرفة. عشنا من قبل في أقل منه.

اقترب منها.

— لا أستطيع أن أطلب منك هذا.

— لم تطلب. أنا أختار.

قالت أم ليان:

— لا تبيعوا البيت. إذا بدأ الحق بهدم بيوت أصحابه، فماذا أبقى الباطل لهم؟

ثم نزلت سوارًا ذهبيًا رقيقًا من معصمها ووضعت فوق الطاولة.

— هذا لابنتي يوم تتزوج. لكنها لن تحتاج إلى زفاف إذا لم نعالجها.

أخرج الأب مبلغًا صغيرًا من جيبه.

ثم وضعت المرأة المسنة خاتمها.

قال يحيى:

— توقفوا. لسنا هنا لنجمع من الضحايا.

جاء صوت من الخلف:

— بل نحن هنا كيلا يبقى أحد منهم ضحية وحده.

كان العم صابر، صاحب البقالة، يقف عند الباب. وضع دفتر الديون القديم فوق الطاولة.

— كل من له دين عندي من أسر المرضى فهو مسدد. وهذا ما أستطيع.

خلفه دخل أطباء، وتجار صغار، وطلاب، وعمال من الحي. كان عارف قد نشر خبر اجتماع الأسر دون تفاصيل الصفقة، ودعا الناس إلى مساندتهم.

لم تدخل المدينة دفعة واحدة. دخلت في هيئة أيدٍ صغيرة: صيدلي يقدم الدواء بسعر التكلفة، طبية تعرض إجراء الفحوص مجاناً، سائق يتكفل بنقل المرضى، امرأة لا تملك إلا أن تطهو للأسر القادمة من القرى.

الخير، مثل الجريمة، قد يتكون من أفعال صغيرة تتجمع. غير أن الفرق أن الشر يحاول إخفاء حلقاته، أما الخير فيقوى حين تتصل أيديه.

نظر يحيى إلى الوجوه.

فهم أن الإنسان ليس مضطراً دائماً للاختيار بين حق عاجل وعدالة بعيدة، إذا خرج الناس من عزلتهم وحمل كل واحد جزءاً من العبء. كان الفساد قد راهن على فقر الضحايا ووحدتهم؛ وحين اجتمعت المدينة حولهم، بدأ المال يفقد سلطته على صمتهم.

صوّتت الأسر.

وافق معظمهم على رفض شرط السرية، وعلى تقديم طلب عاجل بإنشاء صندوق التعويض تحت إشراف القضاء. أما من اختار قبول عرض منفرد لحاجته، فلم يلمه أحد، ولم يُتهم ببيع القضية.

قال يحيى:

— لا نجعل الفقراء يدفعون ثمن نقاء صورتنا. من احتاج إلى قبول المال فله عذره وحقه، وتبقى الدعوى العامة قائمة.

كانت العدالة عنده تتعلم الرحمة، والرحمة تتعلم ألا تمحو العدالة.

في صباح اليوم التالي، امتلأت ساحة المحكمة.

جاءت الأسر تحمل صور موتاهها، لا شعارات الأحزاب ولا أسماء الجماعات. تحت كل صورة كُتب الاسم كاملاً:

عبد الرحيم غالب.

هدى صالح.

محمود عبد الواسع.

رقية قاسم.

كانوا يعيدون الأسماء إلى من حولتهم الشركة إلى حالات وأرقام.

وقف الصحفيون عند المدخل. وصلت سيارات المتهمين تباعاً: منصور، جلال، مدير المستشفى، الطبيب المسؤول عن الجناح، الممرضة، وعدد من الموظفين والوسطاء.

دخل فؤاد على كرسي متحرك، تحرسه قوة مستقلة. لم يدخل بصفة ضابط، بل متهمًا وشاهدًا.

ودخل سامر متكئاً على عكاز.

أما عبد الكريم فجاء من المستشفى تحت الحراسة، شاحباً من أثر العملية.

تلاقت عيون الرجال الأربعة في الممر: يحيى، سامر، فؤاد، وعبد الكريم. لم يكن أحد منهم كما كان في أول الحكاية. كل واحد حمل ندبة ظاهرة أو خفية، وكل واحد عرف أن العودة إلى الحق لا تعني الإفلات من حساب الطريق الخطأ.

اقترب سامر من يحيى.

— أخاف أن أنظر إلى أولادي بعد الحكم.

قال يحيى:

— انظر إليهم قبل الحكم وبعده. السجن لا يهدم الأب كما يهدمه الكذب.

قال فؤاد:

— وقد يكتب الناس عني أنني بعت القضية.

أجابه يحيى:

— اترك الناس يختفون فيك. مهمتك أن تقول كل ما تعرفه، لا أن تخرج من المحكمة بصورة واحدة.

أما عبد الكريم، فقال:

— إذا سألوني هل كنت أعرف أن المعلومات ستقتل خديجة؟

— قل ما كنت تعرفه، وما اخترت ألا تعرفه.

رفع خاله عينيه إليه.

كانت العبارة أقسى من الاتهام؛ لأن الإنسان مسؤول أحيانًا لا عن المعرفة وحدها، بل عن الجهل الذي صنعه بإرادته كي يظل مرتاحًا.

بدأت المحاكمة.

عُرِضَت التسجيلات، وكشوف التحويلات، وملفات المرضى، وصور الجناح المحترق. شهدت الممرضة بأنها تلقت أمرًا بزيادة الجرعة، واعترفت أنها أخذت المال. وشهد الطبيب هاشم بأنه وقّع تقارير كاذبة وسلم بيانات دخوله. وشرح سامر كيف عدّل السجلات، ثم كيف نسخ الأدلة. واعترف فؤاد بأخذ جزء من الأموال، وكشف أسماء من حموا الشبكة.

حين جاء دور عبد الكريم، وقف متكئًا على الحاجز.

سأله القاضي:

— هل كنت تعلم أن جلال يدير تجارب غير قانونية؟

— لم أكن أعلم في البداية.

— ومتى بدأت تشك؟

— حين كثرت أسئلته عن مرض أختي وعمل ابنها.

— ماذا فعلت؟

— اخترت ألا أبحث.

— لماذا؟

— لأن المال كان يصل، ولأنني أردت أن أصدق أنه يساعدنا.

— هل أبلغته بموعد دخول خديجة إلى المستشفى؟

— نعم.

— هل تعلم أن هذه المعلومة استُخدمت للوصول إليها؟

بكى عبد الكريم.

— أعلم الآن.

قال محامي الدفاع:

— موكلي لم يقصد الإضرار بها.

رفع عبد الكريم رأسه.

— لا تخفف عني بما لم أقله. لم أقصد موتها، لكنني قصدت الحفاظ على المال، وقصدت ستر أخي، وقصدت ألا أعرف ما يفسد راحتي. اكتبوا هذا كله.

ساد الصمت في القاعة.

كان اعترافه أكثر تأثيرًا من خطبة؛ لأنه لم يجعل نفسه بطلاً لتوبته، ولم يستخدم ندمه ممحاة.

ثم نودي يحيى للشهادة.

وقف أمام القاضي، وأدى القسم.

سأله الادعاء عن أول عقد عُرض عليه، وعن فصله، وتزوير توقيعه، واختفاء سامر، ووفاة أمه، والجناح المغلق.

حكى الوقائع دون تزويق.

وحين جاء دور محامي الشركة، وقف رجل مشهور بقدرته على تحويل الشك إلى سكين.

قال:

— السيد يحيى، ألم تعرض عليك المؤسسة إعادتك إلى منصبك وتعويضك؟

— بلى.

— ورفضت؟

— نعم.

— ثم بدأت الظهور مع أسر المرضى وتقديم نفسك ممثلًا لهم؟

— لم أقدم نفسي ممثلًا لأحد.

— لكن شهرتك اتسعت، وصرت بطلاً في الصحف.

— الصحف هي التي اختارت الكلمة.

— أليس صحيحاً أنك تستفيد معنوياً من القضية؟

توقف يحيى.

كان يستطيع أن يقول: لا. وسيصدقه كثيرون. لكنه تذكر رسالة أمّه: /حذر أن
تحوّل ثباتك إلى كبر.

قال:

— نعم، وجدت في نفسي سروراً حين مدحني الناس، وخفت أن أحب
صورتي عندهم.

تحرك همس في القاعة. لم يتوقع المحامي الاعتراف.

سأله:

— إذن لديك مصلحة شخصية؟

— كل نفس لها مداخلها. لكن سروري بالمدح لا يجعل المرضى غير
موجودين، ولا يحوّل التسجيلات إلى خيال.

— وربما بالغت في مواقفك لتحافظ على صورتك؟

— ربما أثرت صورتي في بعض اختياراتي دون أن أشعر، ولهذا سلّمت
الأدلة إلى القضاء، ولم أطلب أن أكون صاحب الحكم.

قال المحامي:

— أنت نفسك لا تثق بدوافعك!

أجابه يحيى:

— عدم عصمتي لا يبرئ موكلك.

ضحك بعض الحاضرين، فضرب القاضي بمطرقته.

اقترب المحامي.

— تقول إنك رفضت توقيع العقد ورعًا، لكن أسرتك انتفعت بأموال جاءت من الشركة عبر خالك.

— لم نعرف مصدرها.

— الجهل ليس براءة دائمًا، أليس هذا ما قلته عن خالك؟

شعر يحيى بحد السؤال.

قال:

— نعم، لكنه ليس إدانة دائمًا أيضًا. الفرق فيما كانت أمام الإنسان من علامات، وما فعله حين ظهرت. خالي رأى ما يدعو به إلى السؤال وأعرض. أما أمي فلم تعرف إلا أن قريبًا ساعدها في الدواء.

— وأنت؟

— لم أعرف بالمال إلا بعد موتها.

— لكنك انتفعت.

— ولهذا طلبت إدخال ما وصل إلى بيتنا ضمن الأموال المستردة من التعويض الخاص بي.

سكت المحامي لحظة، ثم قال:

— ألا ترى أنك صنعت من أمك رمزًا لتجريم شركة كاملة بسبب تصرفات أفراد؟

نظر يحيى إلى جلال ومنصور.

ثم قال:

— أمي ليست رمزًا. كانت امرأة لها اسم وبيت ودواء تحبه ونافذة تجلس قربها. الذي حولها إلى رمز هو من محا اسمها ووضع مكانه رقمًا في برنامج تجريبي. وأنا هنا لأعيدها إنسانة، لا لأصنع منها سلّمًا.

هدأت القاعة.

قال القاضي لمحامي الدفاع:

— هل لديك سؤال آخر؟

جلس الرجل.

استمرت الجلسات أسابيع.

حاولت الشركة نقل القضية إلى محكمة دولية، ثم زعمت أن الفرع المحلي تصرف دون علم الإدارة. لكن الحقيبة حملت توقيعات ومراسلات لا تسمح بقطع الرأس عن الجسد.

وجاء شاهد لم يتوقعه أحد: موظفة سابقة في الإدارة الإقليمية، كانت قد احتفظت بنسخ من المراسلات. قالت إنها صمتت خمس سنوات خوفاً، ثم حين رأت صور المرضى قررت أن تتكلم.

وبعدها تكلم آخرون.

عامل مستودع.

مترجم عقود.

طبيب رفض المشاركة ففُصل.

حارس رأى الجثامين تخرج ليلاً.

لم تكن الأدلة وحدها هي التي كسرت الشبكة، بل سقوط الوهم بأن كل شاهد وحيد. حين تكلم الأول، عرف الثاني أن صوته لن يموت منفرداً؛ وحين تكلم الثاني، اتسع الشق في جدار الصمت.

هكذا تكلمت المدينة.

لا بصوت واحد نقي، بل بأصوات مرتجفة ومتأخرة ومتفاوتة. بعضها تكلم شجاعة، وبعضها خوفاً من السقوط، وبعضها ندمًا، وبعضها لأن الصمت لم

يعد مربحًا. لكن الحقيقة لم تشترط على كل صوت أن يكون كامل الدافع قبل أن تستفيد منه.

في يوم النطق بالحكم، امتلأت القاعة.

أدان القضاء جلال بإدارة برنامج تجارب غير قانوني، والاشتراك في القتل والتستر وغسل الأموال. وأدين منصور بالاختلاس والتزوير والتحريض الذي أفضى إلى وفاة خديجة. كما أدين مدير المستشفى والطبيب المشرف والمرضة بدرجات متفاوتة.

حُكم على سامر بالسجن مدة مخففة لتعاونه واعترافه، مع إلزامه برد ما حصل عليه. وحُكم على فؤاد بالعزل والسجن في جريمة الرشوة وإخفاء الأدلة، مع اعتبار دوره في إنقاذ سامر وكشف الشبكة ظرفًا مخففًا.

أما عبد الكريم، فأدين بإخفاء معلومات وتلقي أموال مشبوهة، وحُكم عليه بمدة أقصر مع وقف جزء منها بسبب تعاونه وحالته الصحية.

وأمرت المحكمة بمصادرة أصول الشركة المحلية، وإنشاء صندوق عاجل لعلاج الضحايا وتعويض الأسر، وإعادة فتح ملفات الوفيات كلها بأسمائها الحقيقية.

لم يشعر يحيى بالفرح حين سمع الأحكام.

رأى مريم تبكي بصمت، وزوجة سامر تحتضن طفليها، وابنة فؤاد تقبل رأس أبيها قبل اقتياده، وخاله يلتفت نحوه بعينين ممتنيتين وحزينتين.

العدل لا يصنع مشهدًا مريحًا دائمًا. قد يعيد الحقوق، لكنه لا يلغي أن وراء كل مذنّب عائلة ستتألم، وطفلاً لا يفهم لماذا غاب أبوه. غير أن الرحمة بأهل الجاني لا تكون بإطلاق يده ليصنع ضحايا جددًا، بل بأن يحمل المجتمع ألامهم دون أن يزور الحكم.

أما جلال، فوقف عند الباب قبل اقتياده وقال ليحيى:

— ربحت القضية، وخسرت عائلتك.

أجابه يحيى:

— العائلة لا يحفظها إخفاء المجرم، بل منع الجريمة من أن تصبح ميراثها.

— وستعيش بقية عمرك على موت أمك.

— سأعيش بما تركته، لا بالطريقة التي أخذتموها بها.

خرج جلال.

في ساحة المحكمة، اندفع الصحفيون نحو يحيى.

— هل تعتبر الحكم انتصارًا؟

— هل ستؤسس حزبًا لمكافحة الفساد؟

— هل ستكتب مذكراتك؟

— هل ستقبل رئاسة صندوق الضحايا؟

رفع يحيى يده.

قال:

— هذا ليس يوم انتصار رجل. إنه يوم استعادت فيه أسماء كانت مهددة بالمحو. لا تسمّوا القضية باسمي، ولا تجعلوا وجهي غلافًا يحجب وجوه المرضى.

سأله صحفي:

— وماذا ستفعل الآن؟

نظر إلى مريم، وإلى أسر الضحايا، وإلى ليان التي كانت تحمل دميّتها ذات العين الواحدة.

قال:

— سأعود إلى البيت أولاً. لقد طال غيابي عنه.

عاد مع مريم عند الغروب.

فتح الباب، فاستقبلهما الصمت نفسه، لكنه لم يعد صمتًا فارغًا. حمل أصواتًا كثيرة: أمّه، وأباه، وخاله، وسامر، وكل الذين مروا من البيت أو تركوا فيه معنى.

جلس يحيى قرب النافذة التي اعتادت خديجة الجلوس عندها.

وضعت مريم أمامه إناءً صغيراً من العدس.

ابتسم.

— لماذا العدس؟

قالت:

— وجدته في خزانته. قلت نكمل ما بدأت.

جلسا ينقيانه معاً. يلتقطان الحصى من بين الحَبّات واحدة واحدة، كما كانت تفعل الأم.

قالت مريم:

— عرضوا عليك رئاسة الصندوق.

— نعم.

— هل ستقبل؟

— لا أعرف.

— تخشى المنصب؟

— أخشى نفسي فيه. قد أرفض المناصب حتى يحب الناس رفضي، فيصير الزهد منصباً آخر.

ابتسمت مريم.

— وما الحل؟

أخذ حبة عدس، وأدارها بين أصابعه.

— أن أقبل العمل إذا كان الناس يحتاجونه، وأرفض الامتياز الذي لا يحتاجه العمل. وألا أبقى وحدي في موضع لا يراجعني فيه أحد.

قالت:

— هذا يشبه جواب أمي.

نظر إلى كرسيها الخالي.

— بدأت أفهم أنها لم تترك لنا أجوبة، بل تركت طريقة نبحث بها عنها.

في تلك الليلة وافق يحيى على إدارة صندوق الضحايا مؤقتًا، بشرط أن يكون تحت رقابة مستقلة، وأن تُنشر حساباته كاملة، وألا يتقاضى راتبًا يزيد على متوسط رواتب العاملين فيه، وألا يحمل الصندوق اسمه ولا اسم أمه.

لكن أسر المرضى اختارت له اسمًا آخر:

بيت الأسماء.

مكان يعيد لكل ملف وجهًا، ولكل رقم حكاية، ولكل غائب حقه في أن يُذكر.

ومع افتتاحه بعد أشهر، بدأ الفصل الأخير من حياة يحيى؛ الفصل الذي لم يعد فيه مطلوبًا منه أن يثبت أمام إغراء واضح أو تهديد مباشر، بل أمام فتنة أدق:

أن يتحول انتصاره الأخلاقي إلى سلطة، وأن يصير الرجل الذي قاوم
المؤسسة مؤسسةً جديدة لا يجرو أحد على مساءلتها.

الفصل الرابع عشر

ما لم يخسره

افتُتِحَ بيت الأسماء في صباح هادئ من أوائل الربيع.

لم يكن مبنى فخماً. بيت قديم جرى ترميمه، ذو فناء تتوسطه شجرة سدر، وغرف واسعة تحولت إلى عيادات ومكاتب قانونية وقاعة تحفظ ملفات الضحايا. وعلى الجدار عند المدخل عُلقَت لوحة بسيطة كُتبت عليها أسماء من ماتوا في الجناح، لا أرقام حالاتهم.

وقف يحيى أمام اللوحة طويلاً.

قرأ الأسماء واحداً واحداً، كما لو أنه يؤدي أمانة شخصية نحو كل غائب:

عبد الرحيم غالب.

هدى صالح.

محمود عبد الواسع.

رقية قاسم.

خديجة عبد الرحمن السالمي.

توقف عند اسم أمّه.

لم يُكتب أكبر من سائر الأسماء، ولم يُحط بإطار خاص. أصرّ على ذلك حين أراد أعضاء الصندوق أن يضعوه في صدر اللوحة.

قال يومها:

— أمّي عزيزة عليّ، لكنها ليست أعزّ على العدل من أمّ ماتت ولم تجد ابنًا يرفع صوتها.

لقد تعلّم أن الحب الصادق لا يطلب امتيازًا لمن يحب داخل ميزان الحق؛ يخصّه بالحنين، لا بالحكم.

دخل الناس تباعًا. أسر المرضى، والأطباء المتطوعون، والمحامون، والصحفيون، وطلاب أرادوا المساعدة. وجاءت ليان تحمل دميّتها القديمة وقد خيّطت لها أمها عيّنًا جديدة.

اقتربت من يحيى وقالت:

— صارت ترى.

نظر إلى الدمية وابتسم.

— كانت ترى بعين واحدة.

هزّت رأسها بجديّة الأطفال:

— لكنها الآن ترى الأشياء من الجهتين.

توقفت العبارة في قلبه.

كم احتاج هو إلى أن يرى الأشياء من جهتين: أن يرى الضعف دون أن يسميه براءة، والخطيئة دون أن يلغي صاحبها، والعدل دون أن يطعمه الحق، والرحمة دون أن يجعلها مهرباً من الحساب.

قالت ليان:

— أمي تقول إنك أنقذتني.

جلس على ركبته أمامها.

— أنقذك رجال كثيرون. رجل فتح الأبواب، وآخر كسر الجدار، وأمك بقيت تبحث عنك، والله جمع لك الطريق.

— لكنك دخلت النار.

— وقد كنت سأبقى فيها لولا من أخرجني.

فكرت قليلاً ثم قالت:

— إذن لا أحد ينقذ وحده.

ابتسم.

— هذه أجمل عبارة قيلت اليوم.

في الأشهر الأولى، عمل يحيى من الفجر إلى الليل.

كان يتابع علاج المرضى، ويزور الأسر، ويطالع حسابات الصندوق بنفسه، ويرفض الهدايا والدعوات. انتشرت سمعته، وصار الناس يذكرونه مثلاً

للزاهة. نُشرت صورته في الصحف، ودُعي إلى مؤتمرات، وعُرضت عليه جوائز.

رفض أكثرها.

وفي كل مرة كان يرفض، ازداد إعجاب الناس به.

وذات مساء، وجدته مريم جالساً في المكتب بعد انصراف الموظفين، يقرأ مقالاً عنوانه:

يحيى السالمي: الرجل الذي لم تشتتره الدنيا.

قالت:

— هذه المرة الخامسة التي تقرأ فيها المقال.

أغلق الصفحة بسرعة.

— كنت أراجع بعض المعلومات الخاطئة.

جلست قبالة.

— المقال كله مديح. أين المعلومات التي تراجعها؟

لم يجب.

قالت بابتسامة لطيفة:

— يبدو أن الدنيا وجدت باباً آخر.

نظر إليها.

— ماذا تقصدين؟

— عجزت عن شرائك بالمال، فجاءتك في صورة رجل لا يشتريه المال.

وقعت عبارتها عليه كمرآة وُضعت فجأة أمام موضع أخفاه عن نفسه.

كان يظن أنه تجاوز الفتنة لأنه رفض المنصب والراتب والتعويض. لكنه بدأ يتذوق لذة أخرى: أن يراه الناس زاهدًا، ثابتًا، استثنائيًا. وكلما رفض شيئًا، انتظر في داخله — دون أن يعترف — أن يعرف الآخرون أنه رفضه.

قال:

— هل ترين أنني تغيرت؟

— لا أعرف. لكنك صرت تغضب إذا اتخذ الموظفون قرارًا دون الرجوع إليك.

— لأنني مسؤول عن الصندوق.

— وصرت تراجع كل ملف وحدك.

— أخشى أن يتكرر الفساد.

— الخشية التي تجعل منك الرجل الوحيد الجدير بالثقة ليست تواضعًا.

سكت.

تابعت مريم:

— قاومت منصور لأنه أراد أن يضع توقيعه فوق كل شيء، ثم بدأت أنت تضع رأيك فوق كل شيء. الفرق أن توقيعك نزيه، لكن المؤسسة التي لا تعيش إلا برجل واحد تبدأ مرضها حتى لو كان ذلك الرجل صالحًا.

كانت الكلمات تؤلمه لأنها جاءت من أقرب الناس، ولأن شيئاً فيه يعرف صدقها.

قال بحدة لم يقصدها:

— أنت لا تعرفين حجم المسؤولية.

تغير وجهها.

وفي اللحظة نفسها تذكر منصور حين قال له: حين تدخل إلى قلب السوق ستعرف أن الأشياء ليست بيضاء أو سوداء.

ها هو يستخدم العبارة نفسها بمعنى آخر: أنت لا تعرفين، وأنا أعرف. كأن المعرفة بدأت تمنحه حق إسكات من حوله.

خفض صوته.

— سامحيني.

قالت:

— لا أريد اعتذارًا سريعًا يريحك. أريدك أن تسأل نفسك: هل تبني بيت الأسماء ليبقى، أم ليبقى محتاجًا إلى اسمك؟

ثم خرجت.

ظل يحيى وحده.

نظر إلى صورته المنشورة في المقال، ثم إلى انعكاس وجهه على الشاشة السوداء بعد أن أغلقها. كان الرجلان متشابهين، لكن أحدهما مصنوع من مديح الناس، والآخر يعرف ما يخفيه عنهم.

تذكر رسالة أمّه:

احذر أن تحوّل ثباتك إلى كبر، أو أن ترى نفسك خيرًا ممن سقطوا. لولا ستر الله ولطفه، لكنت واحدًا منهم.

للمرة الأولى فهم أن الإنسان قد ينجو من بيع مبدئه، ثم يحاول امتلاك المبدأ نفسه ونسبته إلى ذاته. قد يرفض المال، لكنه يطلب مكانة في قلوب الناس. وقد يترك المنصب، لكنه يبني من زهده عرشًا خفيًا.

الآخرة لا تحرره من فتنة الدنيا إذا جعل يقينه سببًا للتعالي؛ بل تصبح الآخرة نفسها كلمة يستخدمها لتمجيد صورته.

قام، وذهب إلى غرفة الحسابات.

كانت سلمى، المحاسبة الجديدة، تجمع أوراقها. وحين رآته عادت إلى مقعدها.

— هل هناك خطأ؟

— بل جئت أسألك عن خطئي.

نظرت إليه متعجبة.

— أي خطأ؟

— قدمت قبل أسبوع اقتراحًا بتشكيل لجنة مستقلة للمشتريات، ورفضته.

— قلت إن الإجراءات ستبطل علاج المرضى.

— هذا ما قلته. لكن الحقيقة أنني لم أحب أن تخرج الموافقات من يدي.

سكتت سلمى.

قال:

— هل ما زال المقترح لديك؟

أخرجته من درجها.

— نعم.

— ضعيه على جدول الاجتماع غدًا، وأضيفي إليه مراجعة جميع قراراتي خلال الأشهر الماضية.

اتسعت عيناها.

— جميعها؟

— خصوصًا التي يظن الناس أن نزاھتي تغني عن مراجعتها.

قالت:

— قد يستخدم بعضهم هذا ضدك.

— إن كان القرار صحيحًا فلن تضره المراجعة، وإن كان خاطئًا فأنا أولى بمعرفته.

خرج من الغرفة، وقد شعر بخفة لم يشعر بها حين قرأ المقال. فمديح الناس يرفع الإنسان فوقهم، أما الاعتراف بالخطأ فيعيده إلى الأرض التي يستطيع أن يمشي عليها.

بعد عام، خرج سامر من السجن.

كان قد قضى مدة محكوميته، وعمل في مكتبة السجن، وأتم برنامجًا في تدقيق الأنظمة المالية. انتظره يحيى عند الباب.

خرج سامر يحمل حقيبة صغيرة، وتوقف حين رآه.

— ظننت أنك سترسل أحدًا.

— بعض الأبواب ينبغي أن ينتظر عندها صديق، لا موظف.

عانقه.

في السيارة، قال سامر:

— هل ما زال عرض العمل قائمًا؟

— قائم، لكن ليس في الحسابات.

ضحك سامر.

— لا تثق بي؟

— أثق بصدقك الآن، لكن التوبة لا تعني أن نعيد الإنسان مباشرة إلى موضع ضعفه ثم نسمي ذلك حسن ظن. ستعمل في برنامج حماية المبلّغين، وتساعد الموظفين على الخروج قبل أن يصلوا إلى ما وصلت إليه.

نظر سامر من النافذة.

— كنت أريد فرصة أن أثبت أنني تغيرت.

— ستثبتها، لكن لا تجعل إثباتها سبباً للهروب من آثار ما فعلت.

— ما زلت قاسياً.

— وأنت ما زلت تحتاج إلى من يقول لك ما لا تحب.

ابتسم سامر.

— لهذا اتصلت بك أولاً.

عند البيت، كان طفلاه ينتظرانه. ركضا إليه، فتراجع لحظة كأنه يخشى عناقهما، ثم جثا وفتح ذراعيه.

سأله ابنه الأكبر:

— هل كنت في سفر؟

نظر سامر إلى زوجته، ثم قال:

— كنت في السجن لأنني فعلت أشياء خاطئة، ثم قلت الحقيقة متأخرًا.

قال الطفل:

— هل صرت جيدًا الآن؟

امتلأت عينا سامر.

— أحاول كل يوم.

لم يمنحه جوابًا أسطوريًا، ولم يقل إن التوبة حولته في ليلة إلى رجل آخر.
علّمه أن الصلاح ليس لقبًا يحصل عليه المرء، بل محاولة تتجدد ما دام حيًا.

أما فؤاد، فقد بقي في السجن.

زاره يحيى بعد عامين. وجد شعره قد اشتعل بالشيب، لكنه بدا أكثر سكونًا
من يوم قابله في المسجد.

قال فؤاد:

— ابنتي لا تزال غاضبة مني.

— من حقها.

— كنت أتوقع منك أن تقول لها سامحي أباك.

— المسامحة لا تُنتزع بالمواعظ. دعها تمرّ بطريقها.

— أكتب إليها كل أسبوع.

— وهل تشرح لها لماذا فعلت؟

— كنت أفعل.

— توقف.

نظر إليه فؤاد.

— ماذا أكتب؟

— اكتب ما فعلت، لا لماذا فعلته. الأعذار الكثيرة تجعل الاعتذار دفاعًا طويلاً عن صاحبه.

أطرق فؤاد.

— تعلمت القسوة في إدارة الصندوق.

— وتعلمت أن بعض الرحمة تكون في عدم إنقاذ الإنسان من مواجهة نفسه. ابتسم فؤاد.

— وهل سامحتني أنت؟

فكر يحيى.

— لم أعد أتمنى لك الألم. وأرجو أن تصلح ما تستطيع. لكن أثر ما فعلته لم ينته، فلا أريد أن أستخدم كلمة كبيرة قبل أن ينضج معناها في قلبي.

هز فؤاد رأسه.

— هذا أصدق من عفو سريع.

خرج عبد الكريم بعد فؤاد بأشهر.

لم يعد إلى بيته أولاً، بل ذهب إلى قبر خديجة. وقف عنده طويلاً، ثم جلس على التراب.

رافقه يحيى، لكنه بقي بعيداً.

قال عبد الكريم:

— يا أختي، كنت أقول إنني أخاف عليك، والحقيقة أنني خفت على نفسي. أخذت المال كي أساعدك، ثم أحببت أن أبقى الرجل الذي يساعد، فلم أسأل من أين تأتي قدرته.

سكت، ومسح دموعه.

— أخوك جلال في السجن، وأنا خرجت منه، لكنني لا أشعر أنني أصلح منه بما يكفي كي أكرهه. الفرق أن الله كشفني لنفسي قبل أن أمضي بعيداً مثله.

اقترب يحيى وجلس إلى جواره.

قال خاله:

— هل يحق لي أن أعود إلى بيتها؟

— البيت بيتك.

— ومريم؟

— تنتظر.

— وأنت؟

نظر يحيى إلى القبر.

— لم أعد أحملك موتها كله. لكننا سنحتاج إلى زمن كي يعود القلب إلى موضعه.

قال عبد الكريم:

— سأنتظر.

لم يطلب من ابن أخته أن ينسى، ولم يجعل القرابة أمرًا بالإعفاء. عرف أن الثقة لا تعود بكلمة كما لا تُهدم بكلمة واحدة؛ إنها بيت يُبنى ببطء بعد الحريق.

مرت خمسة أعوام.

كبر بيت الأسماء حتى صار شبكة من العيادات والمراكز القانونية. وتعلم يحيى أن يتراجع خطوة كلما كبر العمل، وأن يبني نظامًا يستطيع الاستمرار من دونه. كان يكرر في الاجتماعات:

— النزاهة التي تعتمد على رجل واحد مشروع فساد مؤجل؛ لأن الرجل يموت أو يضعف أو يتغير.

رفض أن تحمل الفروع صورته، ومنع الموظفين من تسمية أي مشروع باسمه. وحين اقترحوا وضع تمثال رمزي له في فناء المركز، ضحك وقال:

— أنقذوا المرضى من الأدوية التجريبية، ولا تبتلوهم بوجهي كلما دخلوا.

تزوجت مريم من طبيب شاب يعمل في رعاية مرضى القلب، وأنجبت طفلة سميتها خديجة. وحين حمل يحيى الصغيرة أول مرة، شعر أن الاسم لا يعيد الراحلة، لكنه يمنح الحنان القديم نافذة جديدة يدخل منها إلى العالم.

أما ليان فكبرت، وصارت تأتي كل عام في ذكرى الحريق. احتفظت بدميتها ذات العينين المختلفتين، وكانت تقول إنها تذكرها بأن الإنسان لا يرى الحقيقة كاملة من جهة واحدة.

وفي مساء هادئ، جلس يحيى في فناء بيت الأسماء، تحت شجرة السدر. كان يحمل رسالة وصلته من مؤسسة دولية تعرض عليه منصبًا كبيرًا وراتبًا لم يحلم به، مقابل انتقاله إلى الخارج.

لم يكن في العرض فساد، ولا توقيع مزور، ولا صفقة صمت. كان عملاً مشروعًا يستطيع من خلاله مساعدة أعداد أكبر من الناس.

وهذا جعله أصعب.

لم تكن كل مغادرة للمكان خيانة، ولا كل بقاء وفاء. وقد يكون التعلق بدوره الحالي لوئًا من حب الصورة التي صنعها هنا.

جاء سامر وجلس إلى جواره.

— ستقبل؟

— لا أعرف.

— قبل سنوات كنت ستقول: لا، قبل أن تنتهي قراءة السطر الأول.

— قبل سنوات كنت أظن أن الفضيلة تقيم دائماً في الجهة التي تكلفني أكثر.

— أليست كذلك؟

— ليست المشقة دليلاً كافياً على الصواب. قد يختار الإنسان الطريق الأصعب لأنه يحب أن يرى نفسه بطلاً فيه.

ناول سامر الرسالة.

قرأها، ثم قال:

— يسألونك أن تنقل تجربتنا إلى بلدان أخرى.

— لكن بيت الأسماء سيحتاج إليّ.

ضحك سامر.

— أم أنت الذي يحتاج إلى أن يحتاج إليك؟

ابتسم يحيى.

— تعلمت أن تردّ الديون القديمة.

— عملت عند معلم جيد.

نظر يحيى إلى المبنى. رأى سلمى تدير اجتماعًا دون حضوره، والأطباء يتحركون بين الغرف، والمرضى يدخلون ويخرجون. لم يعد المكان قائمًا عليه. وهذا ما كان ينبغي أن يفرحه، لكنه شعر بوخزة خفية: لقد صار البيت قادرًا على الاستمرار من دونه.

فهم أن نجاحه الحقيقي ليس أن يبقى محورًا، بل أن يصبح غيابه ممكنًا.
قال:

— سأقبل لعامين، بشرط أن يعود البرنامج إلى إدارة جماعية بعد ذلك.

— ومن يدير البيت هنا؟

— أنتم.

رفع سامر حاجبه.

— تضع ذنبًا سابقًا على الغنم؟

— أضع رجلًا يعرف كيف تدخل الذئاب، وإلى جواره لجنة لا تسمح له أن ينسى.

ضحك كلاهما.

في الليلة السابقة لسفره، ذهب يحيى إلى قبر أمّه.

جلس كما اعتاد، وحكى لها في سرّه ما وقع خلال الأعوام: زواج مريم، خروج خاله، عمل سامر، الطفلة التي تحمل اسمها، والبلدان التي قد يذهب إليها.

لم يكن يعتقد أن الموتى يحتاجون إلى أخبارنا، لكنه كان يعرف أن الأحياء يحتاجون أحياناً إلى الحديث في الأماكن التي تشكلت فيها قلوبهم.

أخرج من جيبه الورقة الأولى التي كتبها بعد فصله. كانت استقالته القديمة، وقد احتفظ بها طوال السنوات.

قرأ الجملة التي ختمها بها:

لا أريد أن أرث المكتب الذي قاومته.

ابتسم.

لقد عرف بعد ذلك أن المشكلة لم تكن في المكاتب وحدها، بل فيما يفعله الكرسي بالقلب، وأن الإنسان قد يجلس على الأرض متكبراً، وقد يجلس فوق السلطة خادماً إذا ظل يتذكر لمن هي.

قال عند القبر:

— يا أمّي، ظن الناس أنني خسرتك لأنني رفضت التوقيع. ومرّت عليّ أيام ظننت فيها ذلك أيضاً. لكنني فهمت أنني لم أكن أملك أن أشتري بقاءك، ولا أن أدفع عنك أجلك. كل ما كنت أملكه هو ألا أجعل حبك طريقاً أخون به ما ربيتني عليه.

هبت نسمة خفيفة، وحركت أوراق الشجرة القريبة.

تابع:

— لم أربح دائماً. أخطأت، وغضبت، وأحببت المديح، وكدت أجعل من نراحتي صنماً صغيراً. لكن كلماتك ظلت تعيدني كلما ابتعدت.

وضع كفه على التراب.

— قلت إن البيت لم ينقص منه شيء. وأنا الآن أفهم: البيت لم يكن جدراناً، بل ذلك الموضع فينا الذي لا يستطيع الظلم شراءه إلا إذا فتحنا له الباب. نهض.

عند بوابة المقبرة وجد طفلاً يبيع الماء. اشترى منه زجاجة، ثم أعطاه مبلغاً أكبر من ثمنها.

قال الطفل:

— ليس عندي باقى.

ابتسم يحيى.

— الباقي لك.

مضى خطوات، ثم توقف.

عاد إلى الطفل وسأله:

— لماذا تعمل في هذا الوقت؟

— أبي مريض.

جلس إليه، وسأله عن مرض أبيه واسمه ومكانه. ثم كتب له عنوان بيت الأسماء.

لم يرد أن تكون مساعدته نقودًا عابرة تمنحه شعورًا جميلًا ثم ينسى وجه الطفل. كان الخير الذي علّمته أمّه يبدأ حين يحتفظ الإنسان باسم المحتاج، لا حين يلقي إليه شيئًا ويمضي.

غادر المقبرة.

كانت المدينة أمامه تستعد لليل، تضيء نوافذها واحدة واحدة. وفي المبنى الزجاجي البعيد جلس رجل آخر في مكتب منصور القديم، وفي السجن أطفئت الأنوار على جلال، وفي بيت صغير كانت مريم تهدد خديجة الجديدة، وفي مركز العلاج أعطيت ليان جرعتها الأخيرة معلنة نهاية مرضها.

لم تتوقف الدنيا من أجل خسارات يحيى، ولم تتحول كلها إلى عدل لأن رجلًا ثبت مرة. بقي فيها ظلم وطمع ومرض وموت، وبقي فيها كذلك تائبون يعودون، وأيدٍ تفتح الأبواب، وأناس يرفضون أن تتحول الحاجة إلى ثمن للضمير.

وكان يحيى قد تعلم أن النصر الداخلي ليس شعورًا دائمًا بالعظمة، بل قدرة متجددة على العودة إلى الحق كلما أبعدته نفسه عنه.

لقد خسر وظيفة، وأمّا، وسمعة في أيام، وأصدقاء في بعض الطريق،
وطمأنينة كان يظنها حقًا ثابتًا. لكنه لم يخسر القدرة على رؤية خطئه، ولا
الشجاعة اللازمة للاعتراف، ولا قلبه حين صار قادرًا على العدل دون أن
يتغذى على الكراهية.

لهذا لم يعد يقول إن الخسارة هي ما يفوت الإنسان من الدنيا فقط.

كان يعرف الآن أن الخسارة الحقيقية أن ينجو المرء بكل شيء، إلا بنفسه.

أما هو، فقد خرج من الحريق والسجن والمقبرة خالي اليدين مرات كثيرة،
لكنه ظل يحمل ذلك الشيء الذي لا يظهر في كشوف الحسابات، ولا تمنحه
المناصب، ولا تستطيع المحاكم أن ترده إذا ضاع:

ظل يحمل نفسه إلى الله، دون أن يبيعها في الطريق.

الخاتمة

البيت الذي اتسع للغائبين

بعد عشرة أعوام، عاد يحيى إلى المدينة في مساء ماطر.

لم تعد المدينة التي غادرها تمامًا. ارتفعت مبانٍ جديدة، واختفت دكاكين صغيرة كان يعرف أصحابها، واتسعت الشوارع دون أن تتسع بالقدر نفسه صدور العابرين. غير أن المطر ظل يهبط عليها بالطريقة القديمة؛ يغسل الأرصفة، ويستخرج من التراب رائحته الأولى، كأن الأرض كلما ابتلّت تذكرت أنها أقدم من كل ما بُني فوقها.

توقف أمام بيت الأسماء.

كان المبنى مضاءً، والفناء مزدحمًا بالمرضى والمتطوعين. كبرت شجرة السدر حتى امتدت أغصانها فوق جزء من السطح، وتحولت الغرفة الصغيرة التي بدأ منها الصندوق إلى مكتبة عامة تحمل اسم عبد الرحيم غالب، أول مريض مات في الحريق بعد أن استُعيد اسمه من السجلات.

لم يحمل البيت اسم يحيى، ولم يحتفظ مكتبه القديم كما تركه. لم يجد صورته على الجدران، ولم يتوقف العمل حين دخل. بعض الموظفين الجدد لم يعرفوه أصلًا، فطلبوا منه بطاقة تعريف عند البوابة.

ابتسم وهو يخرجها.

قال الحارس الشاب:

— عذراً، هذه التعليمات.

— والتعليمات الجيدة لا تعتذر عنها.

دخل بوصفه زائراً.

رأى سلمى تراجع تقرير الحسابات مع مجموعة من المتدربين، وسامر يجلس في قاعة صغيرة يحاضر لموظفين عن المراحل التي يبدأ منها التلاعب المالي. كان لا يتحدث إليهم من مقام الرجل الذي لم يسقط، بل من خبرة الذي عرف السقوط من داخله.

سمعه يقول:

— لا تنتظروا طلباً كبيراً حتى تقولوا لا. الجريمة الكبيرة تدخل غالباً في طلب صغير تظنون أنكم تستطيعون التراجع بعده.

كانت العبارة تشبه كلمة أبي يحيى عن كيس السكر. ابتسم وهو يدرك أن المعاني الصادقة لا تموت بموت أصحابها؛ تنتقل من قلب إلى قلب، وقد يحملها يوماً رجل لم يعرف صاحبها.

في العيادة قابل ليان.

لم تعد طفلة تحمل دمية بعين واحدة. صارت طبيبة شابة تتدرب في أمراض الكلى، وتضع حول عنقها سماعة طبية. عرفته فوراً، فأقبلت عليه.

— عدت أخيراً.

— قيل لي إن البيت لم يعد يحتاج إليّ، فأحببت أن أتأكد.

قالت:

— البيت الذي يُبنى جيدًا لا يحتاج إلى مؤسسه كي يبقى، لكنه يحتاج إلى قصته كيلا ينسى لماذا بُني.

نظرت إلى اللوحة التي تحمل أسماء الضحايا.

— لهذا آتي بالطلاب إلى هنا قبل أن يبدأوا العمل. أقول لهم: هذه الأسماء ليست ذكرى جريمة فقط، بل حدود أخلاقية للعلم. الجسد الذي أمامكم ليس مادة، حتى لو عجز صاحبه عن فهم الأوراق أو دفع الفاتورة.

سألها:

— وأين دميتك؟

ابتسمت.

— في مكتبي.

— ما زالت بعينين مختلفتين؟

— نعم. صرت أحتاج إليها أكثر بعد أن درست الطب؛ لتذكرني أن المعرفة بعين واحدة قد تكون أخطر من الجهل.

وجد سامر بعد انتهاء المحاضرة.

تعانقا، ثم جلسا في الفناء تحت شجرة السدر.

قال سامر:

— كبرت.

أجابه يحيى:

— العبارة نفسها تصلح لك.

— أنا أقصد أنك شخت.

— وأنت كنت تتحدث عن الحكمة؟

ضحكا.

كان في ضحكهما شيء من شبابي الجامعة؛ من غرفتهما الصغيرة،
ورسائلهما المدفونة في المكتبة القديمة، والأحلام التي لم تعرف يومها كم
ستدفع لتبقى حية.

قال يحيى:

— كيف حال أولادك؟

— ابني الأكبر يدرس المحاسبة.

رفع يحيى حاجبه.

— لم تمنعه؟

— فكرت. ثم قلت إن المشكلة لم تكن في الأرقام، بل في الضمير الذي يسمح لها بأن تكذب.

— وهل أخبرته بكل شيء؟

— نعم.

— ولماذا دخل التخصص بعد ذلك؟

ابتسم سامر.

— قال إنه يريد أن يكون محاسبًا لا يضطر ابنه يومًا إلى قراءة اعترافه.

سكت قليلاً ثم سأل:

— وأنت؟ هل وجدت ما كنت تبحث عنه في السفر؟

نظر يحيى إلى أغصان السدر.

— وجدت أن الفساد يتحدث لغات كثيرة، لكنه يستخدم الحجة نفسها في كل

مكان: المنفعة أكبر من الإنسان. ووجدت أن المقاومة تبدأ من سؤال بسيط:

من الذي سيُدفع إلى الهامش كي تنجح خطتكم؟

— وهل عرضوا عليك البقاء؟

— عرضوا.

— ورفضت؟

— قبلت عامين آخرين، ثم رفضت.

ضحك سامر.

— أخيرًا تعلمت أن تقرأ العرض قبل الرفض.

— وتعلمت أن القرار الصحيح لا يجب أن يبدو بطوليًا.

دخلت مريم الفناء تحمل ابنتها خديجة، وقد بلغت العاشرة. ركضت الصغيرة نحو خالها.

— أمي تقول إنك تأخرت.

احتضنها.

— وأنت كبرت قبل أن أعود.

قالت بجدية:

— لا يستطيع الناس إيقاف العمر حتى يصل المسافر.

كان في نبرتها شيء من جدتها، حتى إن يحيى نظر إلى مريم.

قالت مبتسمة:

— لا تنتظر إليّ، بعض الطباع تعرف طريقها وحدها.

في المساء، اجتمعوا في بيت خديجة القديم.

لم يُبع البيت. حين كبر بيت الأسماء وصار له تمويل مستقل، أصرت مريم على ترميمه وتحويله إلى مأوى مؤقت للأمهات المرضي القادمين من القرى. بقيت غرفة صغيرة للأسرة، أما بقية الغرف فامتألت كل أسبوع بوجوه جديدة.

كان البيت الذي ضاق يومًا بثمن الدواء قد اتسع للأمهات كثيرات.

جلس عبد الكريم قرب النافذة.

كان الشيب قد غمر رأسه، وأثرت الرصاصة القديمة في مشيته. بعد خروجه من السجن، أمضى سنوات يعمل في خدمة أسر الضحايا، لا ليححو ذنبه، بل كيلا يظل الندم شعورًا عقيمًا.

حين رأى يحيى، نهض بصعوبة.

— ظننت أنك ستذهب إلى القبر قبل أن تمر بي.

قال يحيى:

— الأحياء أحق ببعض الزيارة.

جلسا متجاورين.

أخرج عبد الكريم مفتاحًا قديمًا ووضعاه في يد يحيى.

— مفتاح البيت.

— ما زال معك مفتاح آخر.

— أريدك أن تأخذه.

— ولماذا؟

نظر عبد الكريم إلى النساء والأطفال في الغرف.

— كنت أظن أن البيت ملكنا لأننا ورثنا جدرانہ. ثم فهمت أن أختي تركت فيه معنى أكبر من الورثة.

قال يحيى:

— إذن يبقى المفتاح عند من يخدم ذلك المعنى.

أعاد المفتاح إليه وأغلق أصابعه عليه.

لم يعد يحيى يحتاج إلى أن يسلب خاله شيئاً كي يثبت أنه حاسبه، ولا إلى أن يظل غاضباً ليبرهن على وفائه لأمه. لقد نضجت المسافة بينهما حتى صار يستطيع أن يرى الجريمة والتوبة في الرجل نفسه دون أن يمحو إحداهما بالأخرى.

قال عبد الكريم:

— زرت جلال الأسبوع الماضي.

تغير وجه يحيى قليلاً.

كان جلال لا يزال في السجن، وقد استنفد محاولاته القانونية للخروج. لم يطلب العفو من أسر الضحايا، ولم يعترف طويلاً. ظل يرى نفسه رجل علم خذلته السياسة، لا مجرمًا استخدم أجساد الضعفاء.

سأل يحيى:

— كيف وجدته؟

— أضعف جسداً، كما هو قلباً.

— هل اعترف؟

— قال إن التاريخ سينصفه.

أطرق يحيى.

بعض الناس يتوبون حين يرون أنقاض ما فعلوا، وبعضهم يبني من الأنقاض منصة أخيرة يبرر فوقها نفسه. لم يكن السجن كافياً لتغيير جلال؛ لأن القيد الذي يحتاج إلى كسره لم يكن حول معصمه، بل حول صورته عن ذاته.

قال عبد الكريم:

— طلب أن يراك.

— لماذا؟

— يقول إنه يريد أن يسلمك أبحاثاً قد تنقذ مرضى كثيرين.

ابتسم يحيى بحزن.

حتى الآن ما زال جلال يضع الإنسان أمام المعادلة نفسها: الحقيقة أو المنفعة،
العدالة أو العلاج، الضحية أو المستقبل.

قال:

— سأراه.

تعجب خاله.

— لا تخشى أن يستخدمك؟

— سيحاول. لكن رفض سماعه لمجرد أنني أكرهه ليس عدلاً. إن كانت
الأبحاث صحيحة، تُراجع وفق الضوابط، ولا تُهدر لأن صاحبها مجرم. وإن
كانت وسيلة جديدة لتبريره، فلن تنفعه.

— تستطيع الفصل بين علمه وفعله؟

— أحاول. إدانة الرجل لا تجعل كل معلومة يعرفها باطلة، كما أن صحة
معلومة عنده لا تغسل يديه.

تنهد عبد الكريم.

— لو تعلمنا هذا قبل سنوات.

قال يحيى:

— بعض المعارف لا تدخل العقل إلا من جرح.

بعد العشاء، نام الأطفال، وهدأ البيت.

دخل يحيى غرفة أمّه القديمة. بقي الكرسي قرب النافذة، وإن تغير غطاؤه.
وعلى الرف إناء العدس الصغير، احتفظت به مريم كما هو.
جلس.

فتحت أمامه النافذة على الزقاق. كانت مصابيح البيوت خافتة، ووقع المطر
يملاً الليل بإيقاع هادئ. سمع امرأة في الغرفة المجاورة تهدد طفلها
المريض، وصوت أخرى تدعو في صلاتها، وسعال رجل من آخر الفناء.

لم تعد غرفة خديجة تضم ذكراها وحدها. أصبحت مأوى لأوجاع كثيرة،
وكأن رحيلها لم يغلق حضورها، بل وسّعه.

أخرج يحيى من حقيبته الرسالة التي كتبتها له. اهترأت أطرافها، وخف لون
الحبر، لكنه حفظ كلماتها:

قد يقال عنك إنك خسرت، فلا تتعب نفسك في شرح موازينك لكل أحد.

كان الناس قد فهموا قصته بطرائق مختلفة. بعضهم رآه بطلاً، وبعضهم رآه
رجلاً عنيداً دفع أمّه ثمن مبدئه، وبعضهم اتهمه باستثمار القضية، وآخرون
بالغوا في تنزيهه حتى صنعوا منه إنساناً لم يكنه قط.

أما هو، فقد عرف الحقيقة الأقل بريفاً والأكثر إنسانية:

لم يكن ثابتاً في كل لحظة.

خاف، وكاد يتراجع. اتصل بمنصور عند باب المستشفى. أحب المديح. غضب حتى كاد ينتقم. شك في أصحابه، وتعالى برأيه، وتمسك أحياناً بالمشقة لأنها تمنحه صورة أجمل عن نفسه.

لكنه كلما ابتعد، وجد في داخله موضعاً يدلّه على الرجوع.

وهذا ما تركته أمّه حقاً: لم تترك له عصمة من السقوط، بل تركت له طريق العودة.

عند الفجر، خرج إلى المسجد.

مر بالصيدلية التي وقف أمامها يوم فصل من عمله. كان صاحبها الجديد يرفع الباب الحديدي. وعلى الزجاج إعلان يقول:

دواء مجاني لغير القادرين بالتعاون مع بيت الأسماء.

ابتسم ومضى.

بعد الصلاة، جلس في آخر المسجد. لم يسأل الله هذه المرة أن يجعله قويّاً؛ فقد تعلم أن القوة إذا غابت عنها البصيرة قد تتحول إلى صنم جديد.

قال:

— اللهم لا تكلني إلى يقيني بنفسي، ولا تجعل ثباتي حجاباً عن فقري إليك. وإن وضعتني الدنيا بين ما يلمع وما يبقى، فأرني الأشياء بأسمائها، ولا تجعل حاجتي ولا خوفي ولا مدح الناس يختارون عني.

خرج مع أول الضوء.

كانت المدينة تستيقظ كما استيقظت في صباح الحكاية الأولى: الدكاكين تفتح، والحافلات تجمع الناس، والباعة يرشون الماء أمام المتاجر. غير أن يحيى لم يعد الرجل نفسه الذي خرج يومها من بيت أمه متجهًا إلى المؤسسة.

لقد تعلم أن المبادئ لا تُختبر مرة واحدة ثم تستقر في صاحبها إلى الأبد. فكل مرحلة من الحياة تأتيها بمساومة جديدة: مرة في صورة مال، ومرة في صورة دواء، ومرة في صورة نجاة، ومرة في صورة انتقام عادل، ومرة في صورة مديح، ومرة في صورة منفعة عامة تكاد تجعل الباطل مقبولًا.

والإنسان لا يملك ماضيه رصيدًا يضمن به موقفه المقبل. عليه في كل باب أن يختار نفسه من جديد.

مشى يحيى في الشارع، لا يتبعه حارس، ولا ينتظره منصب، ولا تحيط به عدسات الصحفيين. رجل عادي يحمل خبزًا لأهل البيت، وملفات مرضى يريد مراجعتها، وموعداً مع سجين لم يتب، وقلبًا يعرف أنه قد يضعف غدًا كما ضعف بالأمس.

لكنه كان يعرف أين يعود إذا ضعف.

عند مدخل البيت، وجد الطفلة خديجة تنتظره.

قالت:

— تأخرت يا خالي.

ناولها الخبز.

— كنت أبحث عن الطريق.

ضحكت:

— وأنت تعرفه منذ سنوات!

نظر إلى الباب المفتوح، وإلى النساء النائمت في الغرف، وإلى كرسي أمّه خلف النافذة.

وقال:

— الطرق التي تقود إلى البيت نعرفها مرة، أما الطرق التي تقود إلى أنفسنا فعلياً أن نعرفها كل يوم.

دخل.

وانغلق الباب على دفء الصباح، لا ليعزل البيت عن العالم، بل ليحفظ فيه نوراً صغيراً يعود به أهله إلى العالم كلما اشتدت عتمته.

لم يكن يحيى قد احتفظ بعمله الأول، ولا بأمّه، ولا بسمعته التي شوهتها التهمة، ولا بحياته الهادئة التي كان يتخيلها. أخذت الدنيا منه كثيراً، وأعادت إليه بعض ما أخذت بعد أن غيّره الألم.

لكنها لم تأخذ منه ذلك الموضع الأخير الذي يقف فيه الإنسان بين ربه ونفسه، عارياً من ألقابه ومكاسبه وأعداره.

ذلك الموضع الذي إن بقي، لم تكن الخسارة نهائية.

وإن ضاع، لم يكن الربح نجاة.

ولهذا، حين سأله أحدهم بعد أعوام:

— أما زلت ترى أنك لم تخسر؟

أجاب:

— خسرت أشياء لا يزال قلبي يبكيها، ولا أزع أن اليقين ألغى ألمها. لكنني لم أدفع نفسي ثمنًا لاستعادتها. وما دام الإنسان لم يخسر نفسه في الطريق إلى الله، فما فاتته من الدنيا موجه... لكنه ليس الهزيمة الأخيرة.

ثم مضى.

وكان ذلك كل ما بقي من الحكاية، وكل ما أرادت قوله:

قد يخرج المؤمن من المعركة خالي اليدين، مثقل القلب، لا يحمل علامة ظاهرة على النصر؛ غير أن السماء تعرف أن يدًا خفية أمسكت به عند حافة السقوط، وأنه حين عُرضت عليه الدنيا في أحب الوجوه إليه، أحب الحق أكثر.

لا لأنه لم يتألم.

بل لأنه تألم، ولم يبع.

تمت الرواية بحمد الله